الفصل الثانى

صحفيون، وأكاديميون أشرار

و«مخبرون» محليون

حصار العقل العربى

مقدمة:

أثناء سنوات رئاسة بوش، توجّه الكثيرون من أفراد دائرته المُحكمة الشهيرة إلي الأكاديميين والمحليين كي يمدوه باللغة التي تبرر استخدام القوة كوسيلة ديبلوماسية، وتُمرِّر تنويعة من السياسات الداخلية التي تهدف إلي تقييد الحقوق المدنية في الولايات المتحدة. يعلّق بوب وودوارد علي السرعة التي اجتمعت بها دائرة البيت الأبيض الداخلية لمناقشة مخططات غزو أفغانستان والعراق أيضا، حيث يقول إن شلة بوش كانت علي علاقة بعدد قليل من «المفكرين» العملاء الذين كانت توجه إليهم الدعوات بانتظام لحضور عدد كبير من النقاشات السياسية والاجتماعية السرية في الأشهر التي تلت ٩/١١، بل ولقيادة تلك الاجتماعات أيضاً.

obeikandl.com

obeikandl.com

فى الفصل الأول، تفحصنا عددا من هؤلاء «المفكرين» ورأينا شبكات نفوذهم المختلفة والمتداخلة فى أن التى تُشكّل قنوات اتصال مع الإعلام والسياسيين ومراكز الأبحاث ومراكز وضع السياسات، والحكومة، والتيار السائد. ساهمت أعمال لويس وزكريا وأنشطتهما بدرجة كبيرة فى تطوير روايات كان البيت الأبيض ومجموعة الصقور «الثلاكنة» بحاجة إليها لكسب أفئدة الشعب الأمريكى وعقولهم من أجل مواصلة «الحرب على الإرهاب» غير المحددة واللامنتهية. وعلى الرغم من إسهامهما، فلم يبتدع زكريا ولويس مدرسة محددة للإسلاموفوبيا أو فصيلا منها. الأحرى أن أعمالهما هى تكثيف لنموذجين معياريين ثانويين كانا قد ظلا موجودين داخل إطار الاستشراق وثقافة التيار السائد الأمريكية العنصرية لعدة عقود. تعكس الشبكتان المنفصلتان والمتداخلتان فى آن، واللتان رسمنا كثافهما فى الفصل الأول، نماذج معيارية متداخلة ومتنافسة للإسلاموفوبيا تغلغلت فى واشنطون، وإعلام الولايات المتحدة، والمجتمع المدنى شمال الأمريكي.

ومع غزو أمريكا للعراق و«تحرير الكويت» عام ١٩٩١، غدت الولايات المتحدة بحاجة لنماذج ميعارية أكثر شمولا وتقبلا من أجل فهم الشرق الأوسط. كان ذلك هو فجر العالم أحادى القطب، وكانت ثمة وفرة فى استراتيجيات السياسات والرؤى الجديدة لدور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تبنى كلينتون منظمة التجارة العالمية، ومنظمة التجارة الحرة شمال الأمريكية NAFTA، وكان هذا إيذانا بوجود حقائق اقتصادية جديدة تواكب الواقع السياسى المستحدث. كان على الولايات المتحدة إعادة تجهيز نفسها أيديولوجياً بحيث يمكنها التعاطى مع «انتصارها» على الشيوعية، انتصارها على منافس أصبح غائبا عن الساحة. ترك هذا الفراغ الذى وجدت فيه الولايات المتحدة نفسها القوة العظمى الوحيدة، ترك معضلات عملية بالداخل حيث عملت «ثورة الجمهوريين» على جرّ التيار الرئيسى الأمريكى نحو اليمين، وأقامت بذلك خطاً قاعديا يمينيا ذا منحنى أخلاقى بالجبهة الداخلية كان له أن يعمل أساساً لدور الولايات المتحدة الاستباقى كقوة هيمنة كوكبية.

obeikandl.com

سيتفحص هذا الفصل نماذج لويس وزكريا وروايتهما المتداخلة للإسلاموفوبيا وكيف تعمل هذه الروايات على تطبيع السياسات المحلية والخارجية التى تستند إلى شيطنة المسلمين وتجريدهم من صفات البشر، وتضفى على تلك السياسات قشرة من العقلانية. وفى نفس الوقت الذى كان كلينتون يفرض العقوبات المعوقة للحياة على العراق ويقوم باجتياح الصومال، ويقصف السودان وأفغانستان، دفع لويس بمفهومه عن أسباب «حنق المسلمين» – وهو مفهوم مركزى كانت تستند إليه أعداد لا تحصى من مراكز الأبحاث الليبرالية واليمينية فى التسعينيات. وسرعان ما أصبح لويس أكاديمياً داخلياً لحركة المحافظين الجدد التى كان أفرادها قد التحموا فى تلك الفترة وجمعت هذه الحركة معا متشددى الحرب الباردة، والصهاينة الأمريكيين، واليمين الإنجيلي، والمحافظين الجدد المتطرفين. أمدهم لويس بحجة أخلاقية بعثت من جديد «المهمة الحضارية» التى كان الاستعمار الأوربى قد ابتدعها، وذلك على شكل صيغة إلزامية ملحة تحدّد بوضوح ضرورة تزايد تدخل الولايات المتحدة عسكريا واقتصاديا وسياسيا. وبلا ريب فإن رواج حجة لويس انبثق عن نفس الدافع القومى الذى دفع بـ «ثورة الجمهوريين» الأخلاقية إلى النجاح فى نفس الفترة.

وإذا كان لويس قد قام بتوفير السبب «النبيل» للسياسات الداخلية والخارجية القائمة على أساس الإسلاموفوبيا فقد قام زكريا بتبرير الضرورة السياسية لتقديم الإرشاد للعرب المسلمين والدفع بهم خارج «الاختلالات الوظيفية» التى تتسبب فيها ثقافتهم ومجتمعهم. دعم عمله بدوريتى الفورين أفيرز ونيوزويك دوره فى صفوف قيادات المفكرين المحافظين حيث تعاطت أعماله مع القضايا الداخلية والدولية. وإن كان لويس قد وفر القشرة الأخلاقية والفكرية للإسلاموفوبيا التى تفجرت فى أوساط التيار الرئيسى فى أعقاب ٩/١١، فقد وفر زكريا رواية صحفية «واقعية» توضح «لماذا يكرهنا» المسلمون. تضع كتابات زكريا مسألة البرلة [التحرير] الاقتصادية فى وسط المسرح، وبحسب ما يذهب إليه، فإن السبيل الوحيد لتقدم العرب وتحديث مجتمعاتهم (ويعنى بهذا تحرير التجارة والحريات المدنية وحقوق المرأة) هو أن

يعتمدوا أنظمة مستنيرة غير ليبرالية. وفيما سار «معلمه السابق» صمويل هنتنجتون على نهج لويس حينما طرح فكرة عدم اتساق الثقافة الإسلامية مع نظيرتها الغربية وتصارعهما وشيك الحدوث، قلب زكريا هذا النموذج المعيارى رأسا على عقب حيث يطالب بأن تتخذ الولايات المتحدة والغرب إجراءات سياسية واقتصادية وعسكرية تدخلية استباقية بما فى ذلك تغيير الأنظمة – من أجل «نشر» الديموقراطية وتعزيزها وتنفيذ «الإصلاحات». يرى أنه ينبغى أن تدفع تلك الإجراءات إلى السلطة بحكام مستبدين موالين لأمريكا، أو تخلقهم فى حالة تغيير الأنظمة، حكام يستطيعون إدخال تلك الإصلاحات الاقتصادية ومكافحة «الإرهاب الإسلامي»، حيث يرى أن التحرير [اللبرلة] الاقتصادية سيأتي، فى نهاية المطاف، بالإصلاح السياسى الذاتي. وهكذا، أمد زكريا البيت الأبيض بأكثر الروايات وضوحا لتبرير «أجندة الحرية» أو مهمة فرض الحضارة.

الذرائع الأكاديمية للإمبراطورية: برنارد لويس

كما رأينا، كان لويس المتحدث الأكاديمى لجماعة المحافظين الجدد. وذلك تحديدا بسبب رابطة البروفسور الوثيقة مع صهاينة واشنطون المتشددين فى ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته. فى مناسبة رعاها «مجلس الشئون العالمية» أثنى ديك تشينى نائب الرئيس على لويس بصفته حكيما يسعى منّ فى السلطة لتوسل مشورته السديدة. قال تشينى «كتب لويس فى عام ١٩٩٠ «جذور غضب المسلمين وحنقهم» الذى تنبأ فيه بالأعمال الإرهابية التى وقعت فى ذلك العقد. «وفى قرننا الجديد هذا، يسعى صناع السياسة والديبلوماسيون وزملاؤه الأكاديميون، والعاملون بالإعلام الإخباري، يوميا، إلى تلمس مشورته الحكيمة». وإلى جانب «مجلس الشئون العالمية» رعا تلك المناسبة «صندوق بيو الخيري» و«صندوق جلنميد»، وكان كلاهما يتبعان ملاّك شركة صن للنفط. وإضافة إلى تشيني، وهنرى كسينجر وجودى وودراف من سى إن إن، وإيان هيرسى على من «المخبرين المحليين»، فقد حضر المناسبة جوزيف بايدن الذى أصبح نائبا للرئيس.

يعتبر مفهوم «غضب المسلمين» مجازا ملائما إذ إنه تفسير يحمل شكاواهم فى «بيتة» صوتية واحدة بحيث يبدو استياؤهم من الولايات المتحدة بغضا عميقا متأصلا ورد فعل لا عقلانيا، مصدره أوجه قصور دينهم ومجتمعهم التى تحتمها ثقافتهم. ليست رواية لويس نظرية تآمر هامشية عفا عليها الزمن كان يتم تداولها فى الدهاليز الضيقة لمراكز أبحاث المحافظين الجدد وفى عقولهم، ثم يعهد بها إلى إدارة بوش، بل إنه ومنذ وقت قريب، أى فى عام ٢٠١٠ أشار توم بروكاو إلى «جذور غضب المسلمين» بصفتها عقبة كئود تستدعى صياغة «نموذج معياري» جديد من جانب الولايات المتحدة لدى تعاطيها مع العالم الإسلامي. من السهل على المرء أن يفهم سبب جاذبية مقال لويس: «غضب المسلمين» لشخصيات على شاكلة ديك تشينى ومجموعته من دعاة الحروب ومدمنيها، فعلى حين لم يَرد بالمقال ما هو جديد، إلا أنه أتاح لصناع سياسة القرن الحادى والعشرين أطروحات معيارية جدلية معادية للمسلمين جاهزة للاستخدام فى الهجوم عليهم، بل يمكننا القول إن المقال واستخداماته المغرضة يُعدّ نموذجا لجدوى أعمال لويس فى صياغة سياسات الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، حيث لا تكمن فاعلية تلك الأعمال فى قيمتها الأكاديمية أو تحليلها الثاقب للمنطقة، بل فى قدرتها على إضفاء مظهر أكاديمى خادع على عدد من التوكيدات الاختزالية والتبسيطة بل والمتطرفة فى عنصريتها التى تسوغ الأجندة الأمريكية للتدخل السياسى والاقتصادى والعسكرى فى الشرق الأوسط.

يقول لويس، بأسلوب سلس بسيط، ونقاش تبسيطي، إن أسباب غضب المسلمين اللاعقلانية تنبثق عن «تلك الظاهرة الجديدة التى تعمل على إضفاء هالة من القدسية على العالم الثالث.. حيث يقال إن الشيطان [الأفعي] الغربى سلب براءة آدم وحواء اللاغربيين وأفسدهما». لا يعتقد لويس أن أسباب «غضب» المسلمين من الولايات المتحدة تشمل دعمها غير المشروط لإسرائيل؛ ودعم واشنطون «المحدود» للأنظمة السلطوية وانتهاكات حقوق الإنسان، كما أنه لا يرى أن أصول هذا الغضب قد تكمن فى مخططات الغرب للاستيلاء على نفط المنطقة، ناهيك عن التاريخ الأطول

والأشمل للإمبريالية الأمريكية والأوربية فى جنوب شرق آسيا وشمال إفريقيا، وكذلك أنشطتهما الاستعمارية الجديدة. بل إن لويس يرى أنه لا يحق للمسلمين الشكوى من الإمبريالية الغربية، ذلك لأن تاريخ الاستعمار الغربى كان يواكبه دائما مراجعة ذاتية تأملية حول حق مجتمعات الغرب الليبرالية فى استرقاق العالم، واستغلاله وقمعه. وبأسلوب عرضى خارج أى سياق تاريخي، يقول لويس إن المعضلة الأخلاقية المتأصلة فى الاستعمار الأوربي، لم يكن لها وجود أبدا فى تاريخ المسلمين الإمبريالي.

وهكذا يتيح تحليل لويس للمسئولين الحكوميين، والمأجورين الأيديولوجيين تسويغا عقلانيا أخلاقيا لسلب المسلمين حقهم فى التظلم التاريخى أو الحالى من الإمبريالية، والاستعمار الجديد، والهيمنة السياسية والاقتصادية الغربية. وفى مثال كلاسيكى على لوم الضحايا، يعيد النقاش توجيه أسباب غضب المسلمين إلى أوجه قصورهم الثقافى المزعوم، أى أن لويس يقول إن أصول غضب المسلمين وحنقهم تعود إلى مشاعر الاستياء والغيرة والعجز تجاه الغرب الناجح ويرى أن المسلمين، وبأسلوب جوهري، أسرى شراك أوجه قصور ثقافتهم التى تجعل من الحداثة شأنا يتعارض مع «العقل» الإسلامي. وليس هذا بالرأى الجديد إذ إن له أصوله فى إرث الاستشراق الطويل الذى يرجع تاريخه إلى إرنست رنان عميد المستشرقين المعادى للسامية. وإن كان رنان هو الاستشراقى المكتمل الذى أمد استعمار القرن التاسع عشر بالمسوغات الأكاديمية، فإن لويس هو داعية إسلاموفوبيا الدولة ما بعد الحداثي. يقوم بإعادة تشكيل إرث رنان الاستشراقى ليعمل على خدمة احتياجات ما بعد الحرب الباردة لصناع السياسة والمنظرين والسياسيين الذين ينشدون أساسا «أكاديمياً» لتصنيع سياسة أمريكية «استباقية» تخطط لمزيد من التدخل فى المشرق العربي. كما أنه يذهب إلى أن جذور مشكلة «العقل» الإسلامى لا تكمن فى جوهر ثقافات المسلمين جميعهم. ففى واقع الأمر، فلدى صناع السياسة من الحزبين حلفاء مسلمون يعتزون بهم مثل تركيا وماليزيا وإندونيسيا. وهكذا، لا يعود تخلف الإسلام والمجتمعات المسلمة إلى الإسلام ذاته بقدر ما يعود إلى أصوله فى ثقافته لأم، أي، الثقافة العربية.

يعتبر هذا النموذج الإثني/ الدينى المعيارى مركزيا بالنسبة لأعمال أعداد لا تحصى من المنظرين المرشدين، والصحفيين، وأشباه الأكاديميين من أمثال زكريا، ورفائيل باناى، وتوماس فريدمان ودانييل بايبس وغيرهم من «النجوم» الأقل مرتبة على غرار أيان هيرسى على ومارتن كرايمر وإرشاد منجي. وفى السنوات الأخيرة، استخدم صناع السياسة والاستراتيجيون فى إدارة أوباما النموذج الإثنو/ دينى لإثارة المشاعر القومية الفارسية فى مواجهة الإسلاميين فى الداخل الإيراني. وفقا لهذه النظرية، فإن «العقلية» العربية هى التى تحدد هوية الإسلام السنى وتعمل الهيمنة العربية على الإسلام على تنامى التطرف فى الثقافات الإسلامية الحميدة بطبيعتها. يقول لويس، بإصرار، إن المجتمع العربى ظل على مدى التاريخ «معتادا على احتقار البرابرة الكفرة خارج تخوم الحضارة الإسلامية» كما يؤكد على أن المسلمين ظلوا على مدى التاريخ ومنذ ظهور الإسلام منذ أكثر من ألف عام، يزدرون «الغربيين الكفرة» ويريدون غزوهم وإلحاق الهزيمة بهم. وعلى الرغم من أنهم أفادوا من إبداعات الغرب التكنولوجية، وبالذات فى مجال صناعة الأسلحة، إلا أن تلك الواردات الثقافية «لم يكن لها سوى قليل الأثر على مدركات المسلمين [عن الغرب] أو مواقفهم منه، هذا إن وجد مثل هذا «الأثر». وعلى مدى القرون، ظل المسلمون يحصلون على الأسلحة الغربية ويستخدمونها «دونما أى تعديل فى نظرتهم إلى الكفرة الذين حصلوا منهم على تلك الأسلحة». وبحسب لويس، فقد أتقن المسلمون استخدام التكنولوجيا الغربية وحققوا نجاحا كبيرا فى هذا، لكن هذا لم يرادفه تبنيهم الأفكار الإنسانية والديموقراطية للثقافة الأوروبية، ورأى أن «تبنّى مخترعات الكفرة أو محاكاتها شأن، وتعلمهم من معلميهم الكفرة شأن آخر». تعمل مرجعية لويس كمتخصص فى تاريخ الشرق الأوسط على تشبع التوجهات المتداولة حديثا بتلك الأفكار الاستشراقية الجازمة التى عفا عليها الزمن، مثلما يعمل وضعه المزعوم كأستاذ «ضليع» فى دراسات الشرق الأوسط على تحويل أفكار الإسلاموفوبيا العقيمة الارتكاسية إلى مسوغات أكاديمية لسياسة الولايات المتحدة التدخلية.

فى التسعينيات تم توظيف مقولات لويس كطوق صلب ربطه عن كثب بشبكة المحافظين الجدد من لاعبين وتنظيمات ومراكز أبحاث. وعلى النقيض من استخدام أوباما البرجماتى لـ«القوة الناعمة»، استخدم البيت الأبيض فى عهد بوش «مصداقية» لويس الأكاديمية حجر زاوية لتسويغ «أجندة الحرية أخلاقياً»، حيث كان لويس قد حوّل خلاصة الاستخدامات المجازية الاستشراقية القديمة إلى إسلاموفوبيا أيديولوجية تطورت لتصبح رواية دوجماتية إمبريالية نيوليبرالية وصهيونية استخدمت أداة لتنفيذ أجندة بوش الكوكبية. لكن، وعلاوة على ذلك، مضى صوته يدوى فى جميع الوسائط الإعلامية للتيار السائد فى رغبة جامحة منه لتبرير عدم ارتياحه الشخصى تجاه العالم الإسلامى وانزعاجه منه. أمدت آراء بروفسور جامعة برينستون «الأكاديمية» الجازمة الجمهور الأمريكى والإعلام الأمريكى بدعامة أيديولوجية تسوغ هيمنة بلدهم الكوكبية فى العالم أحادى القطب. بتعبير آخر، وفرت تعاليم لويس للخطاب العام تحليلا سهلا مهدئاً يعمل على حرف الأبصار عن مغبات سياسة الولايات المتحدة المستدامة فى الشرق الأوسط التى عملت على توليد مزيد من المشاعر المعادية لأمريكا، وأتاحت أيضا للتيار السائد تسويغ رغباتهم للتحكم فى الشرق الأوسط. من المؤهل لانتزاع الشرق الأوسط خارج سياقاته التاريخية أكثر من ذلك «الأكاديمي» ذى المكانة الراسخة؟ مكنت تلك المكانة لويس من إغفال جميع عوامل التاريخ والمجتمع والثقافة والاقتصاد والسياسة والدين والتى شكل جوهرها خبرة المنطقة بالاستعمار وإغراق المنطقة فى النظام الرأسمالي، وظهور الحركات القومية المحلية أو الإقليمية، وكذلك الحركات الاشتراكية وقياداتها؛ ومغبات الحركة الصهيونية والصهاينة على الفلسطينيين والمنطقة، وكيفية تشكل التضاريس السياسية والاجتماعية الحديثة فى البلدان العربية من خلال ضغوط الحرب الباردة وعواقبها من دفع وجذب. علاوة على ذلك، غدا بإمكان لويس إغفال قرنين من تعاطى البلاد العربية مع الحداثة حيث يقول إنه «بالرغم من كل الجهود، وبالرغم من إنشاء المدارس، وكليات العلوم فى جميع الجامعات تقريبا، فإن استيعاب العلوم الحديثة كان بطيئًا بشكل مؤسف كارثي».

يفسر لويس هذا التقدم الذى لا يكاد يذكر برواية اختزالية بالغة التبسيط حيث يذهب إلى أنه من المستحيل إحداث تغير ثقافى ونفسى وذلك لأن العرب لا يستطيعون مواجهة «الإجابات الحضارية والثقافية» عن الأسئلة والتحديات التى طرحتها الحداثة. كان ذلك الرأى الجازم هو الإسهام الأكثر قيمة فى الأيديولوجيا التى تدعم حجج سياسات الولايات المتحدة الإمبريالية فى الشرق الأوسط، من بين كل ما ألفه من كتب وما كتبه من مقالات وافتتاحيات صحفية.

وعلى غرار أمثلة رنان، فإن المقصد الدّعوى المسيّس لأعمال لويس يختزل الآخرية المطلقة للعقل العربي/ الإسلامى فى جوهر «مزعوم». لكن، بالنسبة لأعماله ما بعد الحداثية وما بعد الحرب الباردة، يحدد لويس سياق تلك «الآخرية» بعلاقتها بحداثة الغرب التى تروج لـ «مجتمعها المدني» العلمانى الديموقراطى نموذجا لمجموعة معلومة من البلدان. ظل لويس دائما يكن ألفة ومودة للنظم المسلمة السلطوية «المتغربنة» وبخاصة للنظام التركى الذى يرى أنه حقق التقدم على الرغم من الإسلام وعلى الرغم من جذور هذا الدين فى الثقافة العربية. ظل لويس داعما طوال حياته للكمالية [الأتاتوركية]؛ وبدلا من أن يسائل ذلك النموذج التركى الذى يتبنى «الحداثة» ويتأقلم معها يجد من الأسهل أن ينكر، بصوت مفوّه، مذابح الأرمن، أو يعارض حقوق الأكراد فى تقرير المصير. يرى لويس أن تركيا نجحت فى احتواء الإسلام داخل أطر علمانية مدنية محددة، وبذلك أتاحت الفرصة للحداثة لأن تتجذر وتزدهر. كانت عدم ملاءمة العقل الإسلامى للمفاهيم الحديثة [الغربية] عن الذات والمجتمع والحداثة بشكل كلى وكامل جوهر مقال «الغضب الإسلامي» للويس، المقال المفضل لدى تشيني، والذى استمد منه صمويل هنتنجتون تعبيره الأكثر شهرة، حيث يقول لويس فى ذلك المقال «إن هذا يرقى لأن يكون صداما للحضارات، رد الفعل اللاعقلانى ربما، والتاريخى يقينا من منافس قديم على موروثنا اليهودي/ المسيحى وحاضرنا العلمانى وعلى انتشار كليهما فى أنحاء العالم».

من ثم، لا ترجع أهمية أعمال لويس إلى فحواها المبتكرة، بل تكمن فاعليتها فى قدرتها على إعادة قولبة المجازات الاستشراقية الجديدة فى صورة نماذج معيارية

جديدة مشبعة بالإسلاموفوبيا تتواءم مع زمن العولمة وسطوة الولايات المتحدة فيه. وفيما قام لويس فى التسعينيات بإدماج الإسلاموفوبيا فى الرؤية السياسية لحركة المحافظين الجدد، فقد قام أيضا بتوضيح ضرورات استخدام قوة القطب الأحادى لصناع السياسة. علاوة على ذلك، فقد وجدت أطروحات لويس الثقافية أصداء لها فى اللاوعى العنصرى للأمريكيين البيض باستغلال مخاوفهم من اندماج العالم الإسلامى الأسمر [غير الأبيض] فى النظام الكوكبي. ومع أخذ هذا فى الاعتبار، يمكن أن نفهم بسهولة كيف أصبح الرد على الغضب الإسلامى الأولوية السياسية فى نظر التيار السائد الأمريكى. للعالم العربى وإيران. بتعبير آخر، فإن تبنى هنتنجتون فى كتابه الشهير لمصطلح «صدام الحضارات» الذى ابتدعه لويس سيتم تقييمه كوثيقة شاهدة على لحظة تاريخية لعب فيها لويس دورا تثقيفيا بأكثر من النظر إلى الكتاب على أنه كتاب عنصرى ملىء بالأضاليل والأطروحات المغرضة. أى أن أعمال لويس «الأكاديمية» فى التسعينيات أصبحت دالة على الحاجة إلى إعادة تشكيل أيديولوجى لوزارتى الخارجية والدفاع فى زمن ما بعد الحرب الباردة. لم يخترع لويس فكرة أن العقل العربى نقيض للعقل الغربى العلماني، إلا أنه نجح فى التسعينيات فى توليد استراتيجية سياسية كان لها أن تزهر أزهارا سامة كان من المفترض لها أن تنتشر لدى أقدام قوات التحرير الأمريكية فى كابول وبغداد فى زمن بوش.

[صنحنى] الدراسات الأكاديمية الأيديولوجية:

لابد من وضع تمسك لويس بالإسلاموفوبيا ما بعد الحداثية التى أسهم فى تصنيعها فى سياقها. فى واقع الأمر، فعلى حين أنه ظل صهيونيا طوال حياته، إلا أن أنشطته السابقة كانت مختلفة عن أجندة ما بعد الحرب الباردة التى دفع بها فى التسعينيات وبداية الألفية الجديدة، بل إن أيديولوجيا الإسلاموفوبيا التى اعتنقها كانت تتناقض مع رؤيته السابقة الاستشراقية والعنصرية أيضا لدور الولايات المتحدة فى العالم الإسلامي. أثناء الحرب الباردة، شجع لويس غرس الإسلام السياسى ورعايته لمجابهة سلطة السوفييت وانتشار الشيوعية العلمانية فى جنوب غرب آسيا

ووسطها. وتحديدا، فقد عُرِف عن لويس أنه أطلق مع برچنسكى فى السبعينيات استراتيجية جديدة معادية للشيوعية حيث أكد على أنه ينبغى على الولايات المتحدة رعاية الأصوليين الإسلاميين فى أنحاء آسيا الوسطى وذلك من أجل استيلاد مشاعر معادية للسوفييت، وكان أن أصبح «قوس الإسلام»، الجنوبى هذا، «قوس الأزمة» بالنسبة للسوفييت. علاوة على ذلك، وبحسب ما أصبح يُعرف فيما بعد باسم «خطة برنارد لويس»، كان على الولايات المتحدة التخلى عن دعمها للشاه، وأن تدعم بدلا من ذلك ناشطى الإسلام السياسى بالداخل الإيراني.

كان مصدر دعم الرئيس كارتر، ووليام كيسى مدير السى آى إيه وبرجنسكى للتيارات الإسلامية، وللمقاتلين الإسلاميين، وبخاصة فى أفغانستان هو ذلك التكافل الثقافي/ الأيديولوجي. كان لمنحنى الأزمة الذى ابتدعه لويس/ برجنسكى أن يعمل على تقويض أساسات المعارضة اليسارية القوية بالداخل الإيرانى وأيضا أن يضع الولايات المتحدة فى وضع مُميّز لتصدير الأصولية الإسلامية المعادية للشيوعية إلى وسط آسيا، حيث تم النظر للأصولية الإسلامية بصفتها وسيلة فاعلة لاحتواء انتشار الشيوعية بالمنطقة بما فى ذلك فى أفغانستان حيث كان لحزب الشعب الديموقراطى الأفغاني، فى السبعينيات دعم شعبى واسع النطاق. بعد أن وصل ذلك الحزب إلى السلطة فى السبعينيات، عمل على إدماج النساء فى المجتمع المدنى بشكل كامل وحظر ارتداء البرقع والزيجات الإجبارية، وأطلق برنامجا للتنمية يفيد البلاد بأكملها. بيد أن خطة برچنسكي/ لويس كانت تدعم بقوة اللوردات الإقطاعيين والمجاهدين «الإسلاميين» فى أفغانستان حتى قبل الغزو السوفييتى عام ١٩٧٩، وكان لها استراتيجية تساعد فيها باكستان على تقويض حكومة كابول العلمانية الثورية المناهضة للإقطاع.

وعلى حين أن إسهام لويس فى تشكيل الجماعات الإسلامية المتطرفة، وتقويتها وانتشارها قد تم نسيانه بأسلوب ملائم مريح، فقد ثبت أن إسهامه فى تشكيل نماذج كراهية الإسلام السائدة أطول عمرا وأكثر تأثيرا بكثير. فعلى حين أن أوباما

قد تخلى إلى حد كبير عن ذلك النموذج، إلا أن نظرية لويس عن صدام الحضارات وتحليلاته مازالت تجد طريقها بدرجة لافتة فى الإعلام والتيار السائد. وإن كان لويس قد ابتعد عن الأضواء فى عهد أوباما، فمازال فؤاد عجمى يدعو إلى نموذج «صدام الحضارات» بحماس كبير، كما تفضح مقالته فى دورية نيويورك تايمز بووك ريفيو التى تجزم بأهمية تلك الصياغة التى استلهمها هنتنجتون من لويس. يستند مثل هذا الخطاب «الحضاراتي» إلى الاختلافات الثقافية، العدائية التى تفصل العقل العربي/ الإسلامى عن العقل الغربى ذى التوجهات الإنسانية، وهذا الخطاب الذى تفصل به لويس بكل مرونة وسيولة هو نتاج مائتى عام من الدراسات الاستشراقية. تفحص إدوارد سعيد الكيفية التى ظل بها هذا الخطاب ذاته يتخلل جميع الدراسات الغربية عن «الشرق» طوال قرنين من الزمان. وفى واقع الأمر، فقد تعاطى سعيد مع لويس فى عدة مناظرات عامة فى الثمانينيات، وكشفه من خلالها بصفته تجسيدا لأكثر أوجه الاستشراق سوءاً، وفضح افتقاده لسعة الاطلاع والتعقيدات التى تميز هذا الموروث. وحقاً، فإلى جانب أوجه قصوره العديدة، فإن أعمال لويس تفتقد الصرامة الأكاديمية، والتحليل النصى المحكم الذى يميز مناهج البحث على أساس من فقه اللغة والتى تبناها الاستشراق. ولا تتمثل مشكلة لويس فى أنه ليس استشراقيا متفقها فقط، بل فى أنه استشراقى ردىء. وفى واقع الأمر، فإن ذلك التبسيط، وتلك الفجاجة الأكاديمية هما تحديدا سبب وجود أتباع كثيرين له فى دوائر صناعة السياسة وإعلام التيار السائد.

مهمة نشر المدنية ما بعد الحداثية:

تتيح الزاوية الحضاراتية – طرح ثنائية التمايز بين الإسلام، والغرب– للويس وأتباعه فرصة لإغفال قرنين من التغيرات الدينامية الاجتماعية والسياسية والثقافية فى العالم العربي، مثلما يبرّئ خطاب صراع الحضارات بوضوح الغرب من أية مسئولية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى العالم الإسلامي. علاوة على ذلك، يجد القراء، والمناصرون لتلك الرؤية من السهل تخطى الحاجة إلى التفحص

المتأنى للحركات والتنظيمات والفنانين والمثقفين والنشطاء الذين تعاطوا مع الحداثة بأساليب معقدة، فيما مضوا أيضا يتحدون الأشكال المتنوعة من الإمبريالية الغربية، والاستعمار والرأسمالية ويشتبكون معها منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن. وحقا، فإن هذا المستشرق يقول عن خطأ إنه لا يوجد من بين هؤلاء المثقفين أو تلك الحركات من ساعل «تلك التمايزات الثلاثة المقدسة التي ترسخ المكانة المتدنية للعبيد والنساء والكفرة». تعاود هذه التيمة الظهور في أعمال لويس بهدف إظهار العرب أناسا غير أسوياء يعانون من رغبة فطرية في الهيمنة على الآخرين، ويتضاعف الميل إلى العنف المتأصل في هذه الرغبة نتيجة الإحباط الناجم عن عدم القدرة المستدامة على النجاح في الهيمنة الثقافية على الآخرين. وبتحديد أكثر، يقول لويس، إن الثقافة العربية يعتريها القلق الحاد إزاء تفوق الغرب اللاإسلامي والحقد على هذا التفوق، ومن ثم يضيف قائلاً: إنه «ومنذ وقت طويل ظل هناك تيار متصاعد من التمرد ضد هذا التفوق الغربي ومكانته، ورغبة في إعادة ترسيخ القيم الإسلامية واستعادة مجد المسلمين»، ويرى أن لهذا تضمينات خطيرة من بينها «أن الشر الحقيقي غير المقبول هو هيمنة الكفرة على المؤمنين الحق». ونحن نشهد هنا جوهر أعمال لويس، وتفسيرا لهاجسه المَرضي بالجهاد.

وحسب ما يذهب إليه لويس فإن «الجهاد» هو الرد الطبيعي للمسلمين على هيمنة الغرب الكوكبية. تُردد كتاباته بعد ٩/١١، مثل كتابه «من بابل إلى الترجمان» هذه التفسيرات، حيث تحدد المشكلة، على أنها سمة دينية/ إثنية وليست ظاهرة سياسية تاريخية. فإن كان العنف وإخضاع الآخرين خاصيات ثقافية متعضونة في نظرة المسلمين والعرب إلى العالم، تصبح الحرب إذن، في عصر صراع الحضارات هذا، ليست مجرد أمر يمكن تطبيقه عمليا، بل مسئولية أخلاقية. وسيعاود مفهوم الضرورة الأخلاقية التي تجبر الولايات المتحدة على تنفيذ «حرب على الإرهاب» الظهور بعد ذلك في جميع أعمال منظري الإسلاموفوبيا وتحليلاتهم. لكن اللافت بدرجة أكبر هو أن الحجة «الأخلاقية» كانت متوافقة تماما مع مفهوم بوش المخادع عن الديبلوماسية

التى بمقتضاها تشن القوة الإمبريالية حربا من أجل فرض السلام. وبناء على ذلك، كان لويس فى لقاءاته على العشاء سرا مع تشينى فى أعقاب ٩/١١ يحثه بقوة على شن حرب ضد المسلمين، ليس بدافع القلق من وجود أسلحة دمار شامل، بل، وكما أكد لويس لنائب الرئيس، لأن أمريكا بهذا تقاتل حضارة مريضة ينبغى عليها أن تهزمها حتى تستسلم. من ثم، فقد حث تشينى على أنه ينبغى على الولايات المتحدة «المضى قدما دونما تردد».

تمكن لويس، حرفيًا، من السيطرة على أسماع أقوى شخصيات الدولة حيث أمدهم بخطاب حضاراتى أتاح للولايات المتحدة إخفاء سياساتها التدخلية تحت عباءة أخلاقية بحيث تعيد هذه الضرورة الأخلاقية قولبة هذه «المهمة الحضارية» وتجعل منها سياسة خارجية قابلة للتطبيق فى القرن الحادى والعشرين، والتى بدورها تمد مبادئ العولمة الاقتصادية والسياسية وأهدافها وآلياتها بدعائمها الرئيسية. أيضا، تُستخدم نغمة الخطاب الحضاراتى الأخلاقية تلك لتوحيد مختلف الأطراف، وهو تأثير مازال يمارس حتى بعد سنوات بوش، حيث نجحت النغمة الأخلاقية التى استخدمت فى الدعاية لـ «الحرب على الإرهاب» فى توحيد الفصائل المتنافسة فى الحياة السياسية، بل وفى المجتمع المدنى بالولايات المتحدة. مثلا، نجحت مسألة قمع النساء فى الإسلام، وكما سنرى لاحقا، فى حشد أعضاء الحزب الديموقراطى الليبرالي، والحركات النسوية، الذين اتفقت آراؤهم مع المحافظين الجدد من الحزب الجمهوري، ومع الحركات الإنجيلية. وهكذا توحَّد الرجال والنساء من الطرفين «النقيضين» على رفض قبول الممارسات «غير الليبرالية» و«المتخلفة» فى البلاد العربية– وبخاصة تلك البلاد غير المتحالفة مع الولايات المتحدة. يفسر هذا المنبر المشترك، الذى يتشارك فى موقف حضاراتى وأخلاقى واحد، سبب توافق معهد واشنطون لسياسة الشرق الأدني، أو معهد بروووكينز واللذين يهيمن عليهما الديموقراطيون، على نفس الآراء التى يتبناها ذى أمريكان إنتربرايز إنستيتيوت، وغالبيته من المحافظين الجدد، حول تدخل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط.

ليست النظرية الحضاراتية الأخلاقية مجرد نظرية لا تمارس على أرض الواقع، أو تنحصر فى دائرة صغيرة من المنظرين وذوى العقائد المثالية. إن آراء لويس عن الإسلام أبوكالية [تتناغم مع ما جاء بسفر الرؤية] لذا تجد لها أصداء لدى الإنجيليين وتتوافق مع النظرة السائدة بالولايات المتحدة عن الشرق الأوسط، حيث إنه طرح سياسة الولايات المتحدة بصفتها معركة معادية حتمية بين الشرق والغرب، معركة تحتمها المبادئ الحصرية المتناقضة التى يتبناها كل منهما. يقوم إعلام التيار السائد الأمريكى ببث هذا التحليل فى جميع الأنحاء إلى حد تشبع الجماهير به، بعد صياغته بأسلوب يجعله يبدو وأنه تفسير عقلانى لسؤال «لماذا يكرهوننا؟». كان لويس مصدر كل استشهاد مرجعى استخدمه جميع المنظرين والسياسيين ممن قرعوا طبول الحرب فى أعقاب ٩/١١. لم تكن الذريعة التى استخدمت لتسويغ «تغيير الأنظمة» لتحظى بإجماع كامل إن لم تكن قائمة على أساس حافز أخلاقى لاريب فيه، وهنا أمد لويس البيت الأبيض برئاسة بوش بالخطاب الحضاراتى الذى يمكن له أن يشكل الأساس الأخلاقى للحرب على الإرهاب «المجيدة»، والتى يمكن لها أن تكون حربا «كلية» تشمل منظومة من الحروب الفرعية مثل غزو أفغانستان، «وتحرير» العراق، والحرب الداخلية وذلك لأنها حرب من أجل البقاء، حرب ضرورة، وحرب إلزام أخلاقي.

وفيما أكد لنا بوش أنها ليست حربا على جميع المسلمين، مضى لويس يمدنا بالحجج الأكاديمية ويؤكد لنا أنها يجب أن تكون حربا على المسلمين جميعهم. لم تركز الأطروحة التى شكلت أساس حرب بوش، على أسامة بن لادن بصفته مسلما ضالا منحرفا، على الرغم من أن بوش، وتشينى ورايس كانوا يقولون هذا أحيانا فى خطاباتهم إلى التيار السائد، الأحرى أن التركيز كان على مسلمى التيار السائد وثقافتهم وعقائدهم المنافية، بل والمعادية لـ«القيم الأمريكية». يضمر هذا أنه لا يمكن النظر إلى غزو أفغانستان والعراق كعمليات معزولة مفردة، بل على أنها تشكل جزءا من «حرب صليبية» أوسع، إذ إن هاتين الحربين وحدهما لن تجديا فى مجابهة الانتشار الفيروسى للإسلام القتالي. بعد ٩/١١، مضى لويس يذكر المرة

تلو الأخرى أن ٩/١١ كانت مجرد «إطلاق النار الاستهلالى فى المعركة الأخيرة» بين الإسلام والعالم المسيحي، من ثم، ينبغى أن يكون الرد حربا على الإرهاب الكوكبي، متواصلة، ومستدامة وأكثر عنفا، حرباً أهدافها ذات أهمية مركزية بالنسبة «لقيمنا الديموقرطية الجوهرية ولأسلوب حياتنا». وعلى حين أن البيت الأبيض برئاسة بوش، مثل البيت الأبيض برئاسة أوباما، مضى يطمئن المسلمين ويؤكد لهم أن الولايات المتحدة لا تخوض «حربا ضد الإسلام» فإن البيانات الواضحة لمن فى البيت الأبيض، وسياساتهم اتبعت وصفات لويس بأنه ينبغى أن تتضمن الحرب على الإرهاب بالضرورة إعادة تشكيل شاملة للعالم الإسلامي، وإعادة تحديد للعلاقة بين واشنطون والبلاد العربية. وفى حالة عدم إعادة رسم الحدود كما كان لويس قد اقترح فى الماضى يجب إجبار العرب على القيام بإصلاحات رغماً عنهم كى يتم قبولهم فى مجتمع الأمم المتحضرة.

وفيما أن لويس ليس على وئام مع إدارة أوباما، فمازال مستمرا فى الدعوة إلى ممارسة ديبلوماسية القوة فى الشرق الأوسط بما فى ذلك إيران، حيث يدعو هو وتلميذه ريويل مارك جرتشت الذى عمل جاسوسا بإيران ثم تحول ليصبح محللا سياسياً، يدعوان إلى رد فعلٍ عسكرى ضد أحمدى نجاد وبرنامج إيران النووى المزعوم. وفى واقع الأمر، فقد برّر لويس، فى السياق الإيراني، شن حرب صليبية كرد فعل أخلاقى على التوجهات التوسعية الإسلامية، وكان قد ألقى هذا الخطاب بالأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت لدى تسلمه جائزة إرفينج كريستول فى حضور ديك تشينى وجون بولتون و«سكووتر» ليبي، وريتشارد بيرل. يوضح هذا الخطاب كيف تسمح مكانة لويس الأكاديمية له بالجهر بآراء جازمة ذات منطق خادع مضلل، آراء لو صدرت عن غيره لاستنكرها على الفور الخبراء الأكاديميون وأفقدوها مصداقيتها. وبمحاكاته مروجى الذعر المعادين للسامية، مضى لويس يصور المسلمين، فى الماضى والحاضر، على أنهم ظلوا يسعون للسيطرة على العالم. قام، وهو يقوض اللحظات التاريخية ويطمسها، بربط إيران بالحركة الوهابية الأصولية ومبادئها، حيث يذكر

أن أحمدى نجاد لديه «رؤى أبوكالية عن الإسلام» ويحذر جمهوره من أن لهذا الشكل من التطرف الإسلامى – هذا على الرغم من معتقدات أحمدى نجاد الشيعية وتمسكه بالقومية الإيرانية – جذوره فى الوهابية السعودية التى تعتبر أكثر الدعوات الإسلامية تشددا وعنفا وتعصبا والتى كان قد أسسها محمد بن عبدالوهاب فى القرن الثامن عشر وتبنتها الحكومة السعودية مذهبا دعمته الثروة النفطية غير المحدودة. ثم يمضى جازما فيقول إن «الوهابية بالنسبة للإسلام، تماثل الكلو كلوكس كلان بالنسبة للمسيحية».

وبأسلوب لويس الكلاسيكى المعهود، يطرح حجته بحيث يستطيع القول بكل حسم إن الولايات المتحدة تتحمل مسئولية مواجهة أحمدى نجاد و«طموحه النووي» قبل أن يطرق الإسلام بوابات ڤيينا مرة أخري. يترك هذا التحليل للولايات المتحدة خيارا وحيدا قابلا للتطبيق، خيارا قويماً وأخلاقياً، يقتضى منها الاستمرار فى «القمع» الفاعل للتطرف الإسلامى فى الداخل الأمريكى كما فى الخارج، ومواجهته عسكريا إذا اقتضى الأمر. وفى نفس اليوم الذى ألقى فيه لويس خطابه ومُنِح جائزته، بثت البى بى نتائج «استطلاع للرأي» أجرته بين العراقيين حيث أيد غالبية المدنيين العراقيين شن الهجمات على قوات «التحالف» فيما عارض ٩٤٪ منهم أعمال العنف الطائفية. وبما أن هذا كان هو الوقت الذى جرى فيه انتشار مزيد من القوات الأمريكية «المتدفقة» على العراق رأى حوالى نصف العراقيين المستطلَعين البالغ عددهم ألفين أنه كلما زادت الولايات المتحدة من عدد قواتها المنتشرة فستزيد أعمال العنف التى يتعرض لها المدنيون.

أصناف الحصار: فريد زكريا

استشهد أفراد مجموعة «الخبراء» الذين تداولوا لعب الأدوار فى دوائر واشنطون بأعمال لويس التى شكلت بالنسبة لهم رواية رئيسية يستشهدون بها على عدم كفاءة المسلمين وبربريتهم وحنقهم العدائى تجاه الغرب. وإذا كانت كتابات لويس لم تظهر فى الوسائط الإعلامية اليومية للتيار السائد، فإن اسمه كان هو المرجعية المصدّقة

التى استند إليها كبار المتحدثين، والصحفيون، والمنظرون فى تنفيذ حملتهم ضد المسلمين. كان يتم تداول ناشطى المرتبة الثانية بين مراكز الأبحاث والبيت الأبيض ووزارة الدفاع، والأمن الداخلي، والخارجية كى يمدوا المسئولين ببعد حضاراتى للحرب على الإرهاب و«أجندة الحرية»، ثم يتم بث خطابهم بين صفوف صغار مثيرى الرأى العام ورجال الإعلام المأجورين من خلال المنافذ الإعلامية المحلية والقومية. تقول الرواية إن أصول «الخطر الأخضر» ترجع إلى المدارس الدينية السعودية، أما فى الداخل فإنه يتمثل بنفس القدر فى التنظيمات الخيرية والدعوية مثل مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية CAIR، والذى يعتبره الكثيرون طابورا إسلاميا خامسا فى الولايات المتحدة. كانت هذه الرواية الأداة الأكثر قوة وفاعلية لتبرير عسكرة السياسة الداخلية والخارجية أمام جمهور أمريكى كان يشعر بالصدمة والمرارة والرغبة فى الانتقام بعد ٩/١١.

وفيما كان لويس معلم التيار السائد حول الإلزام الأخلاقى الكامن فى قلب الخطاب الحضاراتي، كان فريد زكريا هو من عبر عن الرواية السياسية لـ «الحرب على الإرهاب» بأكبر درجة من الوضوح والإيجاز، وسوقها داخليا وعالميا. فإلى جانب شعبيته فى دوائر المحافظين الجدد، فقد حلّقت شهرته عاليا فى أوساط التيار السائد فى أعقاب ٩/١١ بعد نشر مقاله الشهير «لماذا يكرهوننا؟» الذى دائما ما يتم الإحالة إليه والذى يعتبر نصًا تكوينيا فى مجمل الأعمال المعادية للمسلمين والتى بدأها لويس بمقاله «جذور الحنق الإسلامي». يظل مقال فريد زكريا، بالنسبة للإعلام ودوائر واشنطون الداخلية فى فترة ما بعد ٩/١١، التحليل الأكثر أهمية بدرجة بحيث يغطى على محاولاته التقارب مع «المسلمين المعتدلين» بعد رئاسة بوش. بدلا من أن يسأل عن سبب غضب المسلمين الدائم، فإنه يسأل «لماذا يكرهوننا؟» و«لماذا ينبغى أن نهتم؟». ظهرت سلسلة مقالاته فى عدد أكتوبر ٢٠٠١ من مجلة النيوزويك فيما كانت الرضوض النفسية لأحداث ٩/١١ مازالت غضة، ثم تم إعادة طبعها ومعها مقال «كيفية إنقاذ العالم العربى» فى كتاب له بعنوان «مستقبل الحرية». ولّد مقال «كيفية

إنقاذ العالم العربي» ردود فعل واسعة فى العالم العربى تراوحت بين قبول عام لأفكاره من جانب النيوليبراليين، إلى اشتباك نقدى مع آرائه من جانب المثقفين، إلى إشارات هجومية ساخرة إليها فى أغانى المطرب الشعبى شعبان عبدالرحيم.

وبالتقابل مع المنظرين، ومع الصحفيين المشاركين فى الحملة المسعورة المعادية للإسلام، فإن زكريا ليس مأجورا أو إمعة تابعا للبيت الأبيض، فقد برهن على أنه لاعب ذكى حصيف، ملتزم دوجماتيا بالتوجهات النيوليبرالية بأكثر من التزامه بالأفكار الخشبية لحركة المحافظين الجدد، هجين يجمع بين الأيديولوجيا النيوليبرالية والمبادئ المحافظة القديمة، وهو أيضا نتاج لمدرسة السياسة الواقعية للحرب الباردة والبرجماتية السياسية. عملت تعليقاته بالنيوزويك على تأييد صناع السياسة والسياسيين والقراء لها لمدة عقد من الزمان، من ثم، ضمن له ذكاؤه وحصافته وظهوره التليفزيونى النجاح فى فترة ما بعد بوش. وفى واقع الأمر فقد سهلت المرونة التى تميزت بها براجماتية زكريا السياسية له التخلص من كثير من آرائه التى كان قد تبناها سابقا عن العالم الإسلامي، وتبنى آراء أخرى فى عصر أوباما وبعد أن أصبح وجها تليفزيونيا مألوفاً ذا شعبية. لكن هذا الكتاب لن يناقش آراء زكريا المعدّلة فى برامج السى إن إن، حيث إن كتاباته المؤثرة أثناء سنوات بوش أكثر أهمية بدرجة أنها وجّهت طموحات الولايات المتحدة فى تلك السنوات، كما أنها عبرت عن رواية الإسلاموفوبيا البرجماتية حول المجتمع المدنى المسلم وسياساته، تلك الرواية التى تعاظمت شعبيتها بمرور السنوات.

نشأ زكريا فى الهند ابنا للطبقة العلمانية الاقتصادية والسياسية الحاكمة، وهو مسلم اسميا فقط، وهذا النسب النخبوى وما يصاحبه من مكانة سياسية أمر يألفه من قضى وقتا فى العالم النامي. وزكريا نتاج الطبقة البرجوازية الهندية التى تدعو للسياسات الاقتصادية النيوليبرالية وتستغلها وتستفيد منها، وتتبناها بصفتها أفضل وسيلة للتنمية والنمو الرأسماليين. لم يتغير إيمان زكريا فى زمن أوباما بالطبيعة المسيانية [الدينية] للنيوليبرالية، أما أثناء سنوات بوش فقد تواءمت تلك

النظرة بسهولة مع أفكار كونداليزا رايس وسياساتها، بحيث عثر زكريا، في شخص رايس، على توءم روحه. فالاثنان شخصان نيوليبراليان و«مثقفان» من غير البيض، يتحدثان بذكاء ووضوح بلسان السلطة فيما يخفيان انتهازيتهما. تأثر كلاهما، وهما المعاديان للشيوعية ومن صقور الحرب الباردة سابقا، بصمويل هنتنجتون وجوزيف كوربل ويؤمنان بـ«الرسالة الديموقراطية» كأساس لشرعنة سياسة الولايات المتحدة الخارجية في العالم النامي.

وكوزيرة للخارجية، ومستشارة للأمن القومي، كثيرا ما كانت رايس تستشهد بكتاب «لماذا يكرهوننا؟»، هذا على الرغم من أن الكتاب المذكور لا يعدو كونه مقال رأي تم توسيعه، لكن رايس، والرئيس، ومعهم صناع السياسة والصحفيون روّجوا له كبحث إمبريقي مرجعي يشكل أساسا للسياسة الخارجية الأمريكية. كثيرا ما أشارت في أحاديثها إلى «مقال نيوزويك الشهير الذي ظهر عنوانه على الغلاف وكتبه صديقي فريد زكريا»، وكانت تقول «في أعقاب ٩/١١ مباشرة، تساءل أمريكيون كثيرون «لماذا يكرهوننا» وتحليل زكريا يساعد على الإجابة عن هذا السؤال. اعتاد الرئيس بوش، ورايس، وتشيني الاستشهاد مرارا وتكرارا وإلى ما لا نهاية بالجزء من مقدمة زكريا حيث يقول «يكره المتطرفون في العالم الإسلامي أمريكا وسيظلون يكرهونها دوما. يكرهون سياساتنا، قيمنا، حرياتنا، بل أسلوب حياتنا ذاته. وحينما يتم التعبير عن الكراهية من خلال أعمال العنف، فليس ثمة سوى رد ملائم واحد...». ثم تمضي رايس لتقول إن مدركات المسلمين المغلوطة عن أمريكا «تخلق مناخا من المرارة والشعور بالظلم يجد فيه التطرف آذانا مصغية متعاطفة. وباستطاعة مثل تلك الآراء أن تُبقي مجتمعات كاملة أسرى أيديولوجيات فاشلة، الأمر الذي ينجم عنه، بالنسبة للعالم الإسلامي، التخلف والفقر الدائم وغياب الحريات. علينا أن نوصل الحقيقة عن قيمنا وسياساتنا إلى شعوب الشرق الأوسط. ومثلما أن الحرية ينبغي دائما أن تكون أمرا يختاره الناس، فإن التقدم الدائم، وإصلاح المجتمعات يجب أن ينبثقا من داخلها».

تلخص مقولة رايس بإيجاز روح مقال زكريا، ذلك لأنه يري، على خلاف لويس، أن التطرف ليس متأصلا فى الإسلام أو المسلمين، وأن «المشكلة التى يعانى منها الإسلام» تكمن تحديدا فى الثقافة العربية وعقلية العرب المتأصلة والتى انتشرت إلى المسلمين من غير العرب. بعد ١١ سبتمبر، صاغ زكريا السؤال المفتاح للإعلام وصناع السياسة: «ما السبب فى أن هذه المنطقة هى العاجزة سياسيا فى العالم؟ المجموعة الشاردة عن مسيرة المجتمع الحديث؟» وحسب رأيه، لا تقتضى معرفة الإجابة عن هذا السؤال سوى النظر إلى الثقافة العربية، إذ إننا فقط حينما ننظر إلى الشرق الأوسط العربى «نرى بألوان متوهجة منذرة جميع الإخفاقات الوظيفية التى يستدعيها الناس حينما يتحدثون عن الإسلام»، وعلى سبيل المثال قال موضحا إن «أفغانستان كانت أرض المعسكرات التى منها انطلق جيش عربى لقتال أمريكا». يرى زكريا أن العرب متخلفون قبليون أبويون يفتقدون النقد الذاتى ويفاخرون بثقافتهم التى كانت مجيدة يوما ما وغدت الآن فاشلة. تحول تلك السمات الثقافية دون «التقدم» الحق. ثم يمضى زكريا يقول جازما «إذا كان ثمة سبب واحد رئيسى للأصولية الإسلامية فهو ينحصر فى الفشل الكُلى للمؤسسات السياسية فى العالم العربي»، ويرى أن هذا الفشل متجذر فى عدم قدرة العرب على فهم «الحداثة» وأن «تجربة» الحداثة بالنسبة للعرب انتهت بفشل فى أعقاب فشل.

ترجع أصول فكرة «العقل» العربى القبلى المتخلف إلى عقود من الكتابات الاستشراقية، وتبرز بخاصة فى أعمال برنارد لويس ورفائيل بطي. لكن ما يميز زكريا عن لويس هو أن تحليله للعالم العربى يعين حدود هذا الفشل بصفته فشلا فى استيعاب الحداثة وتبنيها، أى أنه فشل سياسى ومجتمعي. وعلى حين أن مسئولية لويس عن الحملة الأيديولوجية ضد المسلمين تكمن فى أنه أتى بتفسيرات أكاديمية «مزعومة» عن أسباب اختلاف المسلمين عن الغرب واستحالة اندماجهم معه أو قبولهم موروثاته الديموقراطية وتوجهاته الإنسانية، فإن دور زكريا هو تسييس تلك الثغرات الثقافية والمساعدة على صياغة حلول عملية تُمَكِّن الولايات المتحدة من التدخل وتوسيع

سيطرتها بزعم الحفاظ على أمنها ومصالحها السياسية والرفاه الاقتصادى العالمي. بتعبير آخر، لا تستند قيمة زكريا، بالتقابل مع لويس، إلى أى مسوغات أكاديمية، بل إنه يمضى يدعو بحماس إلى علاج فشل المسلمين من خلال تبنيهم اقتصاد السوق الحر، والخصخصة وليبرلة التجارة والتعديل الهيكلى لـ «المجتمعات العربية المُغلقة».

وفيما أن لويس يعزو إخفاقات المسلمين إلى بربرية «العقل العربي» فإن زكريا يعزو كراهيتهم للغرب إلى إخفاقات الثقافة السياسية العربية ونظمهم الاقتصادية، ويذهب إلى أن التنمية فى العالم العربى اقتصرت على المحاكاة الببغائية لتفاهات العصر الحديث، أى أن حداثتهم هى مجرد «نسخة زائفة» مشوهة من الحداثة، إذ إنهم يحاكون الشكليات المادية ويغفلون المبادئ الحديثة؛ ثم يمضى ليقول «إن استيراد السلع الغربية سهل، لكن استيراد الحشو الداخلى للمجتمع الحديث – السوق الحر، الأحزاب السياسية، الخضوع للمحاسبة، حكم القانون – صعب، بل إنه يمثل خطرا على النخب الحاكمة»، ومن سوء الحظ أن العرب غير مؤهلين ثقافيا واجتماعيا وفكريا للاستفادة من العولمة: «يشاهد العرب العروض والبرامج التليفزيونية الغربية، ويتناولون الوجبات السريعة ويشربون المشروبات الغازية، لكنهم لا يقومون بعملية تحرير حقيقى لمجتمعاتهم». من ثم، فإن ما نشاهده «هو عكس للعملية التاريخية فى العالم الغربى حيث أنتجت الليبرالية الديموقراطية، وتعزز الديموقراطية الليبرالية. أما الطريق الذى سلكه العرب فقد أنتج الديكتاتورية التى ولّدت الإرهاب الذى هو أبرز تجليات علاقة الاختلال الوظيفى هذه بين الدولة والمجتمع».

وفى تحديده لمعالم إخفاقات المجتمع العربى «غير الليبرالي» يستشهد زكريا بتقرير برنامج التنمية الصادر عن الأمم المتحدة، وبخاصة الاتهام الخاطئ الذى جاء بالتقرير بأن العرب لا ينتجون كتبا مؤلفة أو مترجمة. تظهر تحليلاته العرب مفلسين فكريا وراكدين اجتماعيا ومعوّقين اقتصاديا، وتصبح هذه النغمة معزوفة دائمة تستمع إليها الجماهير العربية حيث حظى تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم بتغطية واسعة فى الإعلام العربي. وفيما يركز التقرير على أزمة ثقافية واجتماعية واقتصادية

وشيكة فى العالم العربى بسبب «تضخم أعداد الشباب»، فإنه يتجاهل، مثل زكريا، عن عمد كثيرا من الحقائق الموجودة على الأرض. مثلا، فعلى مدى السنوات العشر التي مرت منذ صدور تقرير التنمية الأول، ارتفعت معدلات الإلمام بالقراءة والكتابة فى العالم العربي، وتنامت الطبقة الوسطى الحضرية فى جميع العواصم العربية الكبري، وقد حدث هذا على الرغم من العقوبات المعوقة التى فرضتها الولايات المتحدة على بلد مثل العراق باسم الأمم المتحدة. بيد أنه أيضا فقد شهدت تسعينيات القرن الماضى والسنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين حركات تقدمية دينية وعلمانية جديدة تنمو فى معية منظمات ديموقراطية قاعدية عمالية وطلابية من المغرب وحتى سوريا. وفيما يمتدح زكريا الحكام والملوك المستبدين الليبراليين الموالين لأمريكا، فإنه يتجاهل ازدهار مجموعات الحركات القاعدية التى تحتج على السياسات الاقتصادية والبيئية المدمرة، وعلى القمع السياسى الذى تمارسه الدولة فى آن. وفى واقع الأمر، فمنذ مطلع الألفية الجديدة، تبنى زكريا والمنظرون السياسيون المؤدلجون الآخرون، بأسلوب انتقائي، بعض الحركات «الشعبية» فى الشرق الأوسط. مثلا، لا يناقش زكريا أبدا «ربيع دمشق» حيث تضغط العديد من مجموعات المجتمع المدني، والشيوعيون المعارضون، والبعثيون الإصلاحيون، والمثقفون من أجل إجراء إصلاحات داخلية وإجراء الحوار مع الدولة. وبالتقابل، تم تصوير «ثورة الأرز» بحسب تسمية الإعلام الغربي، على أنها حركة لبنانية جماهيرية ديموقراطية عفوية، وهذا ما لم تكنه أبدا حركة «١٤ آذار»، إذ إنها كانت عبارة عن إعادة تحالفات بين النخب الذين قاموا بحشد المشاعر القومية الكارهة للأجانب فى غالبيتها بين أتباع طوائفهم من أجل تحدى الوجود السورى بلبنان. من ثم، لا غرو أن زكريا كان على رأس الإعلاميين الذين شوهوا فوز حماس فى الانتخابات الديموقراطية التى أجريت بالمناطق الفلسطينية.

لا يتبنى زكريا الأحداث التاريخية اعتباطيا ويؤولها بصفتها حركات ديموقراطية، لكنه يفعل ذلك لأن تحليلاته تتسق مع الخطاب الأعم الذى أصبح هو إحدى سماته. أى أنه يصور العالم العربى على أنه ينقسم بين «أنظمة مارقة» و«ديموقراطيات غير

ليبرالية»، ومن ثم فهو يتسم «بعلاقة خلل وظيفى بين الدولة والمجتمع». ومما لا ريب فيه أن زكريا يتفق مع أعمال لويس «المرجعية»، ومع النموذج المعيارى الذى يصور العقل العربى على أنه معيب جوهريا بأسلوب يكاد يكون وراثيا، إلا أن زكريا لا يهتم بحتمية لويس الدينية والإثنية بقدر اهتمامه بالتوصل إلى وضع تصور تخطيطى برجماتى يفهم من خلاله الثقافة السياسية العربية، إذ يذهب منطقه إلى أن الأسلوب الوحيد لإعادة هندسة تلك الثقافة هى فهمها كاملة بكل انحرافاتها وأمراضها. يبين فى تفسيره البنية التنظيمية للعالم العربى أنه «يقع الآن أسيرا بين الدول الاستبدادية والمجتمعات غير الليبرالية التى لا يمكن لأيهما أن يكون أرضا خصبة للديموقراطية الليبرالية، ثم يضيف قائلا «لقد أنتجت التفاعلات الدينامية بين هاتين القوتين مناخا سياسيا يملؤه التطرف الدينى والعنف». والحال هكذا، فإنه ينبغى الدفاع عن دعم الولايات المتحدة لتلك النظم العربية الاستبدادية: «على الرغم من أن حلفاء أمريكا فى الشرق الأوسط استبداديون وفاسدون وقمعيون، إلا أنهم أكثر ليبرالية وتسامحا وتعددية ممن قد يحل محلهم». يصر زكريا أن الحلفاء من أمثال المغرب والأردن ومصر [مبارك]، بل وحتى الأسرة المالكة السعودية أكثر ليبرالية وتسامحاً وقابلية للإصلاحات الاقتصادية النيوليبرالية ومنح النساء حقوقهن وإقامة مجتمع مدنى «حر» من العدو المشترك، أى الإسلاميين.

أتاحت برجماتية زكريا له الاستمرار فى لعب دور فى الحياة السياسية بعد بوش، بل إنها مكنته من التباعد عن أجندة المحافظين الجدد القتالية فى الشرق الأوسط لدى فشلها الواضح أثناء فترة رئاسة بوش الثانية. وفى واقع الأمر، فقد نجح زكريا فى إعادة تشكيل نفسه ليصبح شخصية إعلامية، وتمكن بذلك من إن يكتب، بسلاسة، مقالات يدافع فيها عن أسباب ردود أفعال الولايات المتحدة المبالغ فيها بعد ٩/١١، دونما أن يتنكر لتحليلاته القائمة على أساس أيديولوجيا الإسلاموفوبيا، وذلك لأنه لا يعتمد أساسا فى تحليله على الكراهية المقيتة للإسلام والعرب وعلى الالتزام مدى الحياة بمصالح إسرائيل بنفس القدر الذى يتجلى فى أعمال لويس، بل على التمسك

بمصالح الولايات المتحدة السياسية والاقتصادية بصفتها «قائدة العالم الحر». مكنه هذا النهج البرجماتى من البقاء طويلا فى عالم ظل يتأرجح بين أعمدة القوة «الصلبة» والقوة «الناعمة» لكن، وكما سنري، فعلى الرغم من إعادة تشكيل نفسه كبرجماتى لا حزبي، إلا أن الرواية التى مضى يروجها طوال العقد الأخير تظل حاضرة فى سياسة أوباما شرق الأوسطية وفى خطاب كثير من مستشاريه بشأن الشرق الأوسط. وفى هذا الصدد، فإنه بإمكاننا القول إن زكريا هو المنظّر المكتمل للإمبراطورية الأمريكية بالتقابل مع لويس المنظّر المكتمل للإسلاموفوبيا ذاتها.

وعلى الرغم من أن زكريا يصر على أنه ينبغى على الولايات المتحدة دعم حلفائها التاريخيين ورعايتهم إلا أنه يرى أن اعتماد حلفاء الولايات المتحدة المستبدين على المعونة الأمريكية هو مصدر لسلبية الجماهير تجاه النخبة. يقرر، وهو ينكص إلى استخدام التنظيمات والمزاعم بشأن خمول العرب المتأصل أن دول العالم العربى تعتبر «نموذجا نمطيا للدول التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات»، ثم يمضى قائلاً «إن دخل تلك الدول الذى لا تكسبه بجهدها» بل يأتيها كمعونات أو من عائدات النفط شجع الأنظمة شرق الأوسطية على «ألا تطلب سوى القليل من شعوبها، وفى المقابل، لا تعطيهم سوى القليل». ثم ينتهى تحليل زكريا من حيث بدأ حيث يقرر أن «الأموال التى تأتى بلا جهد لا تعنى سوى قليل من التحديث الاقتصادى أو السياسي». يبرئ منطقه هذا الولايات المتحدة من أية مسئولية عن طول عمر تلك الأنظمة الجامدة المحتضرة فى الشرق الأوسط، حيث يذهب إلى أن المسئولية لا تقع على الحكومات القمعية أو رعاتها فى واشنطون، بل على الجماهير العربية غير الراغبة فى المشاركة فى مجتمعاتها المدنية أو تقبل المسئولية عن قصورها وعدم كفاءتها أو تحمل عبء الحياة السياسية كاملا. بدلا من ذلك، نراهم على استعداد دائما للاحتجاج ضد إسرائيل والولايات المتحدة، بدلا من مواجهة أوجه قصور مجتمعاتهم وأنظمتهم الحاكمة.

وفى واقع الأمر، يرى زكريا أنه من الواضح أن عدم وجود «المجتمعات المدنية»

أو «ثقافة الديموقرطية» [فى البلاد العربية] ينجم عن عقلية الدولة التى تعيش على عائدات صناديق الائتمانات». وبدورها، فإن فشل الحكومات العربية فى تحرير طبقاتها الوسطى ومنحها حقوقها، وأيضا فشل الشرائح الوسطى والعالية من الطبقات المتوسطة فى تشكيل ديموقراطيات مدنية فاعلة هو مصدر الإرهاب.

تجاهل التاريخ: النيوليبرالية بصفتها صنوا للحداثة:

يعبر زكريا فى «لماذا يكرهوننا؟» و«مستقبل الحرية» بإيجاز وتحديد عن منطق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية فى زمن ما بعد الحرب الباردة. فبدلا من أن يدفع بإدانة ثقافية عنصرية صريحة لنوازع العرب وميولهم، يقدم تحليلا اجتماعيا/ سياسيا وصفيا وموضوعيا فى ظاهره لكراهية المسلمين للغرب – وهى كراهية، كما يُذكّرنا بالإمكان أن تنمو محليا بسهولة، وتستورد إلى الداخل الأمريكي، وتصدر إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى غير العربي. وفيما يروج المؤرخ لويس للإسلاموفوبيا التى يُسوّقها على شكل مجازات عبر/ تاريخية وسمات متأصلة فى العقل العربي، يتمثل إسهام زكريا فى التشكيل الأيديولوجى ما بعد الحداثى للإسلاموفوبيا بربطه بين أوجه فشل المسلمين واللحظة الكوكبية الراهنة. ومن خلال دمج الحداثة بالعولمة، والسياسات النيوليبرالية بالديموقراطية، يريد زكريا لنا أن نفهم كيف أن غياب الحرية [أى التجارة الحرة] يؤدى إلى التخلف الاقتصادى والاجتماعى وأيضا إلى تنامى مشاعر الاستياء من الغرب الذى يتمتع بمزايا الديموقراطية والحداثة.

ليست الفكرة القائلة بأن الأنظمة العربية تتشدق بمبادئ الحداثة فيما تعمل ضدها على أرض الواقع بالجديدة. قام جيل سابق من المفكرين العرب من أمثال صادق جلال العظمة وهشام شرابى ومحمد عابد الجابرى بمناقشة فشل العالم العربى فى الأخذ بالحداثة والتنظير لهذا، وليس ثمة حاجة لزكريا أن يعرف العربية ليعلم أن لهؤلاء الكتاب مكانة مركزية فى الفكر السياسى العربي، ولا يبدو أن هذا الجهل المتعمد بأية معلومات ولو سطحية عن تاريخ الفكر العربى الحديث مصادفة. يختلف مفهوم الحداثة لدى هؤلاء المفكرين العرب عن استخدام زكريا المضلل له. قام

المفكرون من أمثال شرابى والعظمة والجابري، منذ خمسينيات القرن الماضي، ثم بعد عام ١٩٦٧ بمراجعة الأساليب التى بها حدَّد أسلافهم فى القرن التاسع عشر معنى الحداثة فى العالم الماضي، وأضافوا آراءهم. ومن المفارقات أن تلك الأعمال الفكرية ذاتها، والتى يمكن الحصول عليها مترجمة إلى مختلف اللغات، تناقض آراء زكريا ولويس التى تجزم بأن العرب يفتقدون تقاليد النقد الذاتي. ذهب هؤلاء المفكرين إلى أن الحداثة هى فترة من الأوضاع السياسية والاجتماعية. يجرى العمل فيها على القضاء على الممارسات والأفكار الإقطاعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التقليدية مع المحافظة على الهوية العربية. أى أن هؤلاء المفكرين يرون الحداثة هى حالة من التحرير الاجتماعى/ الاقتصادى والسياسى وتحرير المرأة، لا كما يراها زكريا على أنها «مأسسة» مبادئ الديموقراطية الليبرالية والاقتصاد النيوليبرالى. إن الحداثة التى يدعو لها زكريا الذى تأثر بأستاذه صمويل هنتنجتون هى مجرد تمويه وذريعة لإجبار المجتمعات على إصلاح العيوب الاقتصادية والاجتماعية التى يعانون منها ليس من خلال ترسيخ إجراءات الحداثة ومبادئها كما يفهمها مجتمعهم المدنى بعد عقود من التفحص الناقد والأنشطة السياسية، الأحرى أن «حداثة» زكريا تعنى أن تتجرع المجتمعات العربية واقتصاداتها المدعومة أقراص النيوليبرالية والعولمة السحرية كى تلحق بعصبة الأمم المتحضرة، أما إن رفضت هذا «الإصلاح الاقتصادي» المزعوم فإن هذا يعنى أنها ترفض الحداثة وحقوق الإنسان والديموقراطية «وحكم القانون».

وفى هذا الصدد، تعكس أعمال زكريا فلسفة النيوليبرالية ونظرتها إلى العالم حيث تضع الأسواق الحرة والتنمية الاقتصادية الليبرالية فى مقدمة تمكين الجماهير والمبادئ الديموقراطية. وعلى حين أن زكريا يتحدث عن إخفاقات المسلمين وتركز كتاباته الأخيرة على باكستان وإيران فإنه يرى إخفاقات تلك البلدان الإسلامية نتيجة لإخفاق العالم العربي، قلب العالم الإسلامي، حيث إنه وبسبب عدم قدرة العرب على استبطان الحداثة، وتطوير مجتمع مدنى وتنمية اقتصاد حر غدا «العالم

العربى صحراء سياسية بدون أحزاب سياسية حقة أو صحافة حرة. لا يوجد به سوى مجالات قليلة للاختلاف والمعارضة، ومن ثم غدا المسجد المكان الذى تُناقَش فيه السياسة». وتوضح مثل هذه الآراء الجارفة مدى خداع زكريا الفادح أو افتقاده للمعرفة. فمثلما يتجاهل عقودا من نقد المثقفين لسوء إدارة التنمية والسلطوية فى العالم العربى فإنه يتغاضى عن جماعات الناشطين القاعدية البارزة مثل كفاية بمصر والبديل فى سوريا والمجتمع المدنى أو شبكة المنظمات غير الحكومية للتنمية بلبنان وATTac-Maroc بالمغرب وغيرها وغيرها، علاوة على التاريخ الطويل للجماعات العلمانية الديموقراطية الناشطة فى العالم العربي.

ظل الحشد السياسى الجماهيرى والوعى السياسى من نسيج التاريخ السياسى الحديث فى العالم العربي. وعلى الرغم من أن أحزابا مثل جبهة التحرير الجزائرية، وحزب المؤتمر الشعبى باليمن، والحزب الوطنى الدستورى بتونس وحزب البعث السورى قد استفردت بالسلطة وحولت بلادها إلى نظام الحزب الواحد إلا أنها كانت قد قامت على أسس أيديولوجية علمانية وكان لها لجان تنفيذية داخلية وفازت فى الانتخابات وكان لها قواعد تأييد شعبية من جميع القطاعات. وعلى الرغم من ذلك، يوجد فى الوقت الراهن الكثير من الأحزاب الإسلامية واليسارية الديموقراطية، مع حفنة من الأحزاب اليمينية تسعي، وعلى الرغم من الحكومات التى تدعمها الولايات المتحدة، إلى تفعيل التمثيل البرلماني. بيد أنه، وحتى لو ألم زكريا بدروس التاريخ وبما يحدث على أرض الواقع، سيظل تحليله كما هو وذلك لأن نظرته إلى العالم الإسلامى تقوم أساس الانتهازية الأيديولوجية التى تجعله يُحرِّف الحقائق ويشكل منها رواية تنتهى إلى أن الغرب ظل دائما فى جانب التاريخ المضيء فيما ظل العالم الإسلامى ظله المظلم.

من إخفاق الأنظمة إلى الإصلاح المنهجى:

مع الأخذ فى الاعتبار قراءة زكريا الانتقائية والأيديولوجية للتاريخ، نجد أن تاريخه يواجه ألغازا دائمة. كيف يتأتى لأى أحد إدخال الديموقراطية على مجتمع يعتنق

التخلف بإرادته وبأسلوب حماسى؟ تشكل إجابة زكريا قطيعة مع البيت الأبيض ومع برنارد لويس والآخرين الذين دفعوا بـ«أجندة الحرية»، وهى فانتازيا لهندسة ديموقراطية لا تصلح للعالم العربى وذلك بسبب ثقافته السياسية وأوجه قصور مؤسساته. من ثم، فهو يرى أن البلاد العربية تحتاج فى الوقت الراهن إلى حكام مستبدين خيّرين أو لملوك على شاكلة عاهل الأردن، من أجل تنظيم مجتمعاتهم ولبْرلتها حتى تصبح ديموقراطية. لكن على الولايات المتحدة أن «تطلب شيئاً» فى مقابل المساعدة والدعم السياسى الذى تقدمه لهم. عليها أن تطلب مقابلا نظير تضحيتها بالمبادئ الديموقراطية وتعاملها مع الحكام المستبدين، على واشنطون أن تطالب «بإصلاح سياسى واقتصادي، وليس بإصلاح ديني». لابد من التحايل على الشعوب العربية حتى تفتح أسواقها ومجتمعاتها، وتلتزم بالولاء السياسى ليس فقط للولايات المتحدة، بل للتعديلات الهيكلية. يرى زكريا أنه فقط عندما يحدث ذلك، ستسود نظم الحداثة المجتمعات العربية وتتوطد دعائمها.

وفى واقع الأمر، سنجد زكريا يوجه اللوم، مؤخرا، إلى سياسات تعددية الثقافة الأوروبية التى سمحت للمسلمين المهاجرين بالحفاظ على ثقافاتهم الأصلية، بل وشجعتهم على ذلك، ويزعم أن ذلك هو مصدر التطرف الإسلامى فى أوربا. أيضا، فهو يرى أن المسلمين فى الولايات المتحدة ليسوا متطرفين بعامة وذلك لأن أمريكا تعمل على استيعابهم بسهولة فى ثقافة البيض المهيمنة، التى هى ثقافة مسيحية فى جوهرها. يستخدم زكريا هذه الرؤية فى إعادة تشكيل خطته التى كان قد تبناها أثناء سنوات بوش لإجراء الإصلاحات فى العالم الإسلامي، أى أن ليبرالية زكريا فى عهد أوباما هى إعادة تدوير لأعماله السابقة التى تركز على الإصلاح المستهدف واللبرلة الاقتصادية، إعادة تدويرها لتصبح نسخة محدثة من الخطة الأصلية التى لا يفتأ يرددها عن تشجيع المسلمين «المعتدلين». وفى إطار تلك المعايير يؤيد زكريا إقامة مسجد فى موقع أحداث ٩/١١ «Ground zero mosque». واكب موقفه من هذه القضية تنازله عن «جائزة الحرية» التى منحته إياها «جمعية مكافحة التشهير Anti-

Defamation League الصهيونية وذلك لمعارضة تلك المنظّمة الشديدة لإقامة مركز إسلامى فى Park 51، بل إن زكريا ذهب، أثناء الجدل بشأن إقامة المسجد، إلى حد تهنئة حزب الله على مصادقته على إعادة ترميم معبد اليهود ببيروت بوادى أبوجميل، وهو حى كان قد أزيل أثناء تنفيذ مشروع سوليدير الإعمارى لرفيق الحريري.

يتعاشق البرنامج النيوليبرالى الإصلاحى لتخلف العالم العربي/ الإصلاحى بسهولة مع سياسات الولايات المتحدة التدخلية فى عهدى بوش وأوباما. أتاحت مرونة استراتيجية الإصلاح البرجماتية التى تبناها زكريا لها الازدهار فى إطار سياسة «القوة الصلبة» الأخلاقية التدخلية التى اتبعها بوش والذى لم يكن انعزاليا بأية حال، وأيضا البقاء فى عصر «القوة الناعمة»، تلك السياسة الماكرة التى يتبناها أوباما. أثناء سنوات بوش استُخدمت رواية زكريا من قبل الإعلام والجمهور الأمريكى وسيلة يُمكنهم من خلالها توفيق غايتين متناقضتين ظاهريا. فمن جهة، كانت ثمة حاجة لحث الأنظمة العربية على بدء الإصلاح السياسي، أولا وقبل كل شىء من خلال مأسسة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التى كان بيل كلينتون قد دفع بها فى العقد السابق. ومن جهة أخري، يمكن تبرير سياسة البيت الأبيض التدخلية الأخلاقية كما عبر عنها لويس، لأن استخدام أساليب «القوة الصلبة» هى الوسيلة الفضلى، إن لم تكن الوحيدة، التى من خلالها يمكن إحداث التغير السياسى والاقتصادى فى العالم الإسلامي، وذلك لأن الأنظمة العربية غير قادرة على إحداث الإصلاح ذاتيا بسبب أوجه قصورها المجتمعية والسياسية. وبدلا من التأكيد على العملية السياسية، يجزم زكريا بأن «الحريات الاقتصادية والمدنية والدينية هى جوهر الاستقلال والكرامة الإنسانية. فإذا مضت أية حكومة محدودة الديموقراطية فى توسيع تلك الحريات باطراد، لا يجوز لنا تصنيفها على أنها ديكتاتورية».

يرى زكريا أن هذا منطق سليم حيث يقول «إن الإصلاح السياسى والاقتصادى هو الحل الذى يبقى مدة أطول من غيره، ويجب أن تأتى الإصلاحات الاقتصادية أولا، حيث إنه على الرغم من أن مشاكل الشرق الأوسط ليست اقتصادية خالصة، فقد

يكمن حلها فى الإجراءات الاقتصادية. وكما رأينا، فإن التحرك باتجاه الرأسمالية هو الطريق الذى يضمن، بأكثر من غيره، إيجاد طبقة وسطى حقيقية ودولة تخضع للمحاسبة». ومرة أخري، يشير تحليل زكريا إلى فشل آخر للجماهير العربية أى عدم قدرتها على إقامة طبقة وسطى مستقلة نشطة بحق، حيث إن الرأسمالية وبدلا من أن تكون محرك التغيير فى العالم العربي، فقد أفسدها اعتمادها على الثروة النفطية التى أنتجت طبقة وسطى متخلفة ورعتها. بالتالي، لم تصبح الطبقة الوسطى العربية رائدة التغيير بل تراجعت إلى حالة من الإقطاع والقبلية والأبوية، وأصبحت، بحسب تنظير زكريا الذى تعوزه الدقة، مستنبت الأصولية العربية الإسلامية ومصدر تجنيد المتطوعين للجماعات الإرهابية. يرى أن ثمة حاجة «لطبقة حقيقية من رجال الأعمال وأصحاب المشاريع والذين لابد لهم أن يشكلوا أهم قوة مفردة للتغيير فى الشرق الأوسط»..

يتقاطع مبدأ بول وولفويتز عن تسيد الولايات المتحدة فى العصر أحادى القطب مع نظريات زكريا فى الاقتصاد السياسي. فمن جهة وجد وولفويتز فى لويس توعم روحه الصهيونية، وكان هو عمليا من أبدع تسويغات التدخل الأحادى اللامتسق ودعا إليه منذ عام ١٩٩٢. ومن جانب آخر، كان هذا نقيضا لممارسات وولفويتز للتنمية أثناء فترة رئاسته [الخلافية] للبنك الدولى وعمله سفيرا بإندونيسيا فى عهد رجلها القوى وحاكمها المستبد سوهارتو. أثناء فترة عمله برئاسة البنك الدولي، طوّر وولفويتز، بالاتساق مع آراء زكريا، سياسة ليبرالية جديدة أصبحت الأساس الذى قام عليه «فرع» مشبوه داخل البنك يسمى «صندوق المستقبل» الذى كانت تموله بشكل أساسى وزارة الخارجية الأمريكية وتترأسه شاهه رضا، تلك الشخصية الخلافية التى كانت عشيقة وولفويتز ومسلمة كارهة لذاتها. كانت مهمة «الصندوق» تستهدف الشرق الأوسط تحديدا، حيث إنه، وبحسب ما قالته كونداليزا رايس «سيقوم بإعطاء منح تمكن الإصلاحيين من الاستناد إلى أفكارهم ومُثلهم لإقامة تنظيمات قاعدية ورعايتها من أجل دعم نمو الديموقراطية».

تفسر هندسة زكريا السياسية ثناءه على الأردن والمغرب، وأمله فى أن تصبح بلاد عربية أخرى مثل سنغافورة، أى «ليبرالية» «دستوريا» وسلطوية على أرض الواقع. يذهب زكريا إلى أن الطريق للوصول إلى تلك اليوطوبيا الهوبزية [نسبة للفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز]، أى نظام الدولة الخيرة السلطوية هى من خلال «فترة انتقالية مدتها خمس سنوات تجرى خلالها إصلاحات اقتصادية وتنمية مؤسسية تسبق إجراء الانتخابات متعددة الأحزاب». يعمل على تحسين سلسلة التناقضات التى يصفها زكريا عقيدة مهيمنة بأن الحريات المدنية والاقتصادية لها الأولوية على الديمقراطية وحكم الشعب. يوضح وهو يصف «الديموقراطية الليبرالية» وتاريخ مفهوم «الحرية» فى الصفحات الأولى لكتابه أن العالم العربى ليس مهيأ لها، ويؤكد أن دروس التاريخ السياسى لأوروبا وأمريكا الجنوبية تعلمنا أن الحرية استبقت الديموقراطية على الدوام، وأنه ليس بوسع أى بلد إقامة ديموقراطية حقة تلقى قبولا سياسيا واقتصاديا من الولايات المتحدة إلا بعد أن يجرى لبرلتها اقتصاديا. وعلى حين أن الجماهير الأمريكية لم تلاحظ حقيقة أن فلسفة زكريا تحرم الملايين فى العالم النامى من حقهم فى المشاركة فى حكم بلدهم إلا أن تلك الحقيقة لفتت انتباه الصحافة العربية، حيث علق عبدالنبى بن علي، الصحفى العربى بقوله إن وقاحة تلك الهندسة الفجّة تؤكد أن فاعلية تعليقات زكريا على الأوضاع فى الشرق الأوسط تكمن فى طلاقته كـ«نبى للديموقراطية النيوليبرالية».

فاعلية نماذج النجاح التى تنجز محلياً:

على حين أن زكريا أعاد تشكيل نفسه كبرجماتى وسَطِى أثناء سنوات أوباما، فقد كانت سنوات بوش هى التى أتاحت له الفرصة لتطوير السياسات المحافظة التى كان قد نماّها فى العقد السابق، وللاستفادة أيضا من آراء المحافظين الجدد التى تبناها لويس عن الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أنه من المنطقى ترجمة الإصلاح النيوليبرالى إلى إصلاح سياسى ولبرلة اجتماعية إلا أن سنوات بوش منحت فرصا واقعية غير مسبوقة لتطبيق ذلك. استند إيمان زكريا بالنيوليبرالية إلى حقيقة قوة

الولايات المتحدة الجيوسياسية، وفى إطار هذا التوجه، رأى أنه ينبغى أن تظل للولايات المتحدة علاقة بما يجرى من أحداث من خلال سياسة خارجية استباقية، وآنذاك، كان بإمكان سياسة «القوة الصلبة» التى تبناها بوش ضمان هذا بأسلوب غير ملتبس. كانت الذريعة الأيديولوجية الأكثر إقناعا بشأن الحفاظ على علاقة الولايات المتحدة هذه هى فكرة الإلزام الأخلاقى كما طرحها لويس والمحافظون الجدد. وعلى الرغم من أن زكريا كان يتفق معهم على أن للولايات المتحدة واجبا أخلاقيا للدفع بالديمقراطية فى العالم العربي، إلا أنه كاستراتيجى ومعلق سياسي، رأى أنه ينبغى أن يواكب «أجندة الحرية» إصلاح اقتصادى وفتح الأسواق العربية وتحرير للتجارة وإعادة الهيكلة البنيوية.

من ثم، أخذ زكريا برأى غلاة المحافظين الجدد القائل بأن الشرق الأوسط بحاجة إلى قصة نجاح يتم إنجازها محليا، حيث تم الاتفاق على أن قصة النجاح تلك ستنجز فى العراق. ذهب زكريا إلى أنه رغم ضعف قدرات شعوب المنطقة الدائم إلا أنهم ينبغى أن يضطلعوا بمهمة الإصلاح، كما أن على الولايات المتحدة أن تدعمهم، حيث إن التغيير يمكن أن ينجز فقط من خلال طبقة محلية من النيوليبراليين تساعدها واشنطون، بل وتوجدها إذا اقتضى الأمر. كانت هذه تحديدا هى الأفكار التى عبر عنها وولفويتز. وبيرل ورمسفلد فى الاجتماعات التى عُقدت بالبيت الأبيض فى أعقاب ٩/١١ حيث ساد الرأى القائل بأنه إذا أطاحت الولايات المتحدة بحاكم مستبد، ستصعد طبقة جديدة من أصحاب المشاريع الأشخاص والديموقراطيين وتخلق «شرق أوسط جديد»، بحسب تسمية كوندليزا رايس له لاحقا أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦. ذهب زكريا وغيره من أمثال دونالد رمسفلد إلى أن العراق كان المرشح الأول لهذا التغيير بسبب تاريخه العلماني، ووجود طبقة وسطى راسخة وثروته النفطية. هنا، كانت كتابات زكريا فى صحافة التيار السائد تعبيرا عن نفس المشاعر والتطلعات التى جاءت بالخطاب المفتوح للرئيس كلينتون عام ١٩٩٨ الذى وجهه أعضاء الأمريكان إنتربرايز إنستيتيوت.

فى عام ٢٠٠٣، نشر زكريا أمام الرأى العام الأمريكى ما يعتبر بروفة لرؤية اقتصادية وسياسية راديكالية جديدة للعراق حيث بيّن قائلا «لو أطاحت الولايات المتحدة بصدام» ومضت تنفذ مشروعا طويل الأمد لبناء الأمة، فبإمكان العراق أن يصبح أول بلد عربى كبير يجمع بين الثقافة العربية والدينامية الاقتصادية، والتسامح الدينى والسياسة الليبرالية والنظرة الحديثة إلى العالم». كانت معاييره للنجاح فى تغيير النظام واضحة حيث رأى أن العراق مرشح لهذا لأنه بلد به انقسامات مناطقية وإثنية ومذهبية قوية. ذهب أيضا إلى أنه لا يجوز أن يفهم تغيير الأنظمة على أنه يقتصر على حالة واحدة، الأحرى أن فاعليته تكمن فى قدرته على استنساخ نفسه فى بلدان أخرى ثم يختتم قائلاً إن «النجاح مُعْدٍ». وفيما يصادق دوجلاس فيث فى «مذكراته» على أن ذلك كان هدف البيت الأبيض فى عهد بوش، يُبين الجنرال ويزلى كلارك فى كتابه بعنوان «كسْب الحروب الحديثة» أنه تلقى قائمة بسبعة بلاد شرق أوسطية عيّنها البيت الأبيض فى عهد بوش لتغيير أنظمتها وكان من بينها إيران ولبنان وسوريا والسودان، وكانت إدارة بوش قد أعلنت تلك الخطة الطموحة فى مذكرة نصت على أن هدفها هو تحقيق هذه الغاية فى غضون خمس سنوات.

أمدت كتابات زكريا التيار السائد بإطار تبدو من خلاله «أجندة الحرية» التى تبناها بوش منطقية جدا. صادقت تحليلاته على آراء «ڤلاكنة» بوش وصقوره وأكدت بأسلوب جازم أن مشكلات العالم الإسلامى على درجة من الخطورة بحيث أصبحت تمثل تهديدا لأمن الولايات المتحدة. من ثم، فإنه وفيما تحافظ واشنطون على أمن أمريكا يمكنها أيضا تحرير المجتمعات المسلمة التى أصابها الوهن نتيجة إخفاقاتها وبسبب أنظمته الجامدة المحتضرة. وفيما يُقر زكريا بأن المسلمين ليسوا جميعا متخلفين بالضرورة، فإنه يتفق مع لويس الذى يرى أن العالم العربى قد نجح فى تسميم معتقدات العالم الإسلامى من خلال مناهج الدعوة التى تُدرَّس بالمدارس الدينية التى تمولها البترودولارات العربية من ثم يجب أن تضطلع الولايات المتحدة بدور استباقى تدخلى لإصلاح المجتمعات شرق الأوسطية. وإذا كان بوش قد وقف

[بعد غزو العراق] أمام لافتة كُتِب عليها «المهمة أُنجزت»، فإنه وتشينى مَضيًا يُكرّران أن المهمة الكبرى هى حرب شاملة على الإرهاب لا يمكن التنبؤ بنهاية لها، حرب «عادلة» و«ضرورية» تستهدف أعداء الحداثة والديموقراطية وحكم القانون.

الخلاصة:

ونحن نختم هذا الفصل، لابد من توضيح بعض النقاط. إن السبب المباشر فى جو الحصار الذى يعيشه المسلمون فى أنحاء العالم هو سياسات الولايات المتحدة المستدامة منذ «عاصفة الصحراء». بيد أن هذا لا يعنى أنه لم يكن ثمة جو من الازدراء ومحاولات التقسيم وبث الفرقة والتحكم قبل عام ١٩٩١، هذا على الرغم من أنه لم يكن بمثل هذه الحدة، فقد حدثت حالات تدخل أمريكية عديدة فى الشرق الأوسط قبل حرب الخليج. فى عام ١٩٥٨، أرسل الرئيس أيزنهاور قوات أمريكية إلى لبنان لدعم كميل شمعون رئيسها الموالى لأمريكا، والذى كان على وشك السقوط. كان شمعون قد أقال، بأسلوب غير قانونى، عددا من الوزراء الناصريين، وحاول، فى مخالفة للدستور، تمديد رئاسته فترة أخري. وحينما قامت القوى التقدمية المسلمة فى غالبيتها، بالتمرد ضده، أمر أيزنهاور بنشر قوات المارينز فى لبنان لإنقاذ الحكومة، ثم قامت الولايات المتحدة، وفى وجود المارينز على الأرض بتنصيب فؤاد شهاب، وكان قائدا سابقا للجيش، ذا ميول قومية ويحظى بالاحترام، لكنه لم يكن ذا توجهات ناصرية أو اشتراكية. وفى نفس العام، أطاح الجنرال عبدالكريم قاسم بالنظام الهاشمى العميل فى العراق. ثم تحالف مع الاتحاد السوفييتى وانسحب من حلف بغداد الذى كان يضم إيران وتركيا وباكستان والعراق وبريطانيا، والذى كانت بريطانيا قد عملت على تشكيله بعد عامين من الانقلاب الذى دبرته السى آى إيه ضد محمد مصدق، رئيس الوزراء الإيرانى المنتخب ديموقراطيا، وإعادة تنصيب الشاه. ثم مضت السى آى إيه، وقد شجعها نجاحها فى إيران فى لعب دور محورى فى الانقلاب البعثى الذى أطاح بعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣. أما المواجهة التى حدثت بين أيزنهاور، وبين إنجلترا وفرنسا وإسرائيل فى عدوان عام ١٩٥٦ فلم تكن بدافع

الحرص على سيادة مصر بل كانت خطوة حصيفة لتجنب أى تصعيد مع الاتحاد السوفييتى [وإنهاء دور بريطانيا فى الشرق الأوسط]، هذا على الرغم من أن مصر بقيادة عبدالناصر كانت من دول عدم الانحياز. بيد أنه أثناء الحرب الباردة، فإن قائمة التدخلات الأمريكية فى الشرق الأوسط وسياساتها العدوانية هناك، بما فى هذا دعم واشنطون الذى لا يتزعزع للصهيونية الكلونيالية ومساعدتها على تحقيق أهدافها، كان مردّه الأساسى التنافس بينها وبين الاتحاد السوفييتى على السيطرة على العالم.

يجسد تاريخ سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى العراق تغير سلوك واشنطون تجاه الأنظمة العربية. فعلى حين أن السى آى إيه ساعدت الانقلاب البعثى عام ١٩٦٣، إلا أن العراق عاد إلى الحظيرة السوفييتية فى نهاية سيتينيات القرن الماضي، ثم كان دفء العلاقات بين صدام حسين ورونالد ريجان إيذانا بمقدم العصر الذى نعيش فيه الآن حيث إن هذا التقارب حدث فى أعقاب ظهور الإسلام الثورى بقيادة الخمينى على المسرح العالمى من ثم، طورت واشنطون علاقات عسكرية وثيقة مع حكومة العراق «المعادية للديموقراطية» بل والاشتراكية أيضا وذلك من أجل استخدامها للقتال ضد الإسلام الجهادى الذى تمثله إيران والذى كان يهدد باختلال توازن القوى الإقليمى وأيضا اختلال سوق النفط العالمي. ومن جهة أخري، كان صدّام، الذى كان محاطا بالأخطار، على أتم استعداد، وعلى الرغم من مزاعمه عن «إيمانه» بـ«الاشتراكية والقومية العربية والعلمنية»، أن يتلقى المعونات العسكرية من الغرب من أجل إنجاز مخططاته فى مختلف المناطق العراقية، وتحقيق طموحاته السياسية الإقليمية.

فى ثمانينيات القرن العشرين، بدأ التموضع الأيديولوجى للولايات المتحدة فى التحول من مواجهة النفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط إلى الحاجة للتحكم المباشر فى المناخ السياسى فى العالم العربى وإدارته، وبخاصة مع صعود الإسلام السياسى القتالي. ظلت سياسة الولايات المتحدة الخارجية فى الشرق الأوسط سواء فى وجود الاتحاد السوفييتى أو فى عصر العولمة، تقوم على زرع الفُرقة، واستخدام المؤامرات

وممارسة الضغط الاقتصادى أدوات رئيسية لها. أما الدوافع الأساسية التى شكلت تقليديا الركائز التحتية لتلك السياسة شرق الأوسطية فقد ظلت مصالح إسرائيل وأمنها والمصالح النفطية. تم توثيق تاريخ اهتمام الولايات المتحدة بنفط الشرق الأوسط جيدا، وقد زاد هذا الاهتمام الآن بأكثر من أى وقت مضي، حتى أن آلان جرينسبان بين آخرين، قد أكد بوضوح أن غزو العراق كان من أجل «أمن النفط».

كثيرة هى التعليقات والتحليلات التى تتناول دعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وسيتم مناقشة هذا الموضوع نقدياً فى الفصل السادس من هذا الكتاب حيث سنقوم بتفنيد كثير من النظريات السائدة عن هذه العلاقة الوثيقة ومنها تلك التى تفسر ولاء واشنطون للدولة اليهودية وإذعانها لها على أساس أن إسرائيل تعمل طابورا خامسا للولايات المتحدة. أيضاً، يزعم چون ميرشيمر وستيفن وولت فى ورقتهما الشهيرة أن اللوبى اليهودى الأمريكى والمسيحيين الإنجيليين الموالين لإسرائيل هم من يعززون دعم الولايات المتحدة لإسرائيل إلى حد كبير مستخدمين نفوذهم المالى فى العملية السياسية، ويذهبان إلى أن هذا الدعم أثّر سلبيا على مكانة الولايات المتحدة فى العالم العربي، كما أنه يعمل ضد مصالح البلد الحقيقية. بيد أن الآراء الشعبية ونظريات المؤامرة عن الولايات المتحدة لدى شعوب الشرق الأوسط تشير إلى ما هو أكثر من شعب واهم مخدوع – بل العكس هو الصحيح. يذهب أحد تفسيرات تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية فى المنطقة، والتى تبدو لا مبالية وقصيرة النظر وإمبريالية وقاصرة، إلى أنها ذات دوافع أيديولوجية بحيث يمكن أن تنطبق عليها تفسيرات المنظرين بداية من ماركس وحتى ألتوسير. أى أن الآراء والتنظيرات الهجومية الخبيثة [عن العرب والمسلمين] والتى تفحصناها فى هذا الفصل ليست شذوذا أو انحرافا للثقافة السياسية الأمريكية، أو نتيجة عملية اختطاف للمبادئ الأمريكية بعد أحداث ٩/١١ التى روعت الأمريكيين. الأحرى أن تلك النماذج التنميطية للعرب عضوية ومصدرها اللاوعى «الأمريكي» السياسى، وقد أوردنا فى هذا الفصل تفاصيل التحليلات التى تتسم بالإسلاموفوبيا، والتى أصبحت حقائق

مفترضة يُبحث من خلالها الشرق الأوسط ويناقش فى الإعلام، وتبّرر بها السياسات الداخلية والخارجية الأمريكية.

يذهب هذا الكتاب لاحقا فى نقاشه للصهيونية إلى أن الولايات المتحدة تتعاطف جوهريا معها وذلك لأن لتلك الأيديولوجيا ذاتها أصداء عميقة تتناغم مع التاريخ السياسى والعسكرى الأمريكى. للمسيحيين الأمريكيين إرث طويل من معاداة السامية، وعلى الرغم من الدور البارز لليهود الأمريكيين فى الحياة السياسية للحزبين إلا أن معاداة السامية من مكونات اللاوعى الثقافى للأمريكيين البيض. من ثم، فإن هذا الدعم الذى لا يتزعزع لإسرائيل لا ينجم فقط عن مشاعر الذنب حول الهلوكوست أو القبضة الحديدية للوبى الصهيونى بقدر ما ينجم عن تماهى المسيحيين شمال الأمريكيين مع رغبات الأوروبيين فى استعادة الأرض التى وعدهم الرب بها فى سفر التكوين. مثلا، وعد الرئيس هارى ترومان المعادى للسامية حاييم وايزمان ودايفيد بن جوريون بالاعتراف بإقامة دولة إسرائيل حتى قبل إعلان قيامها على الرغم من معارضة أصدقائه ومستشاريه القدامى كلارك كليفورد وإبراهام جرانوف وإيدى چاكسون ومحاولتهم إثناءه عن ذلك. كان سلوك ترومان القسرى نتيجة مشاعره الدينية العميقة من جهة، وقناعته بحق اليهود الأوروبيين فى «أرض الميعاد» على الرغم من ملكية العرب الفعلية لتلك الأرض منذ أكثر من ألف عام.

من ثم، فعلى الرغم من أن برنارد لويس قد ظل صهيونيا متشدداً منذ زمن، وأن صهيونيته شكلت جوهر أبحاثه وكتاباته ونشاطه السياسى لعقود، فإن قضية الإسلاموفوبيا ذاتها لا تتعلق بإسرائيل. كما أنه، ومن جهة مغايرة، فلا أهمية لحقيقة أن زكريا شخص مسلم. ونظرا لأن الإسلاموفوبيا تنمو من حطام الإرث الاستشراقي، فإنها تتمحور حول إسقاط الذات الأوربية على الشرق الأوسط، بل وغرسها هناك، فيما تقوم أيضا، بتحديد هوية شرق الأوسطيين وعزلهم من أجل «تطويقهم» فى منطقتهم. تتعلق الإسلاموفوبيا بالتحكم فى «الآخر» الذى يمثل تهديدا لنظرة أمريكا البيضاء إلى ذاتها، وإلى مصالحها الاقتصادية والسياسية الذاتية فى

عصر العولمة. توضح لنا كتابات لويس وزكريا أن «العقل» الأمريكي الذى يتجلى فى تلك الكتابات ليس من بقايا الماضي، وتخبرنا أيضا كيف ينظر المسئولون الأمريكيون المنتخبون والمشتغلون بالإعلام ومحترفو السياسة إلى العالم ويبررون التحكم فيه. يمثل هذا الوعى مرتكزات كشوفات هذا الكتاب؛ أى أن الإسلاموفوبيا أيضا هى تشكيل أيديولوجى ينجم عضويا عن نظرة أمريكا البيضاء المتعالية إلى العالم والتى تسعى إلى تبرير مصالحها السياسية التى تتناقض مع المبادئ الليبرالية التى يتبناها الأمريكيون.

يبلور كتاب مايكل أورن «القوة، العقيدة، والفانتازيا» والذى يسرد تاريخ مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط من وجهة نظر صهيونية، صورة العرب فى «العقل السياسى الأمريكي». ليس افتقاد الكتاب لأية قيمة أكاديمية هو المهم، بل اللافت أنه يعكس بوضوح شيطنة الأمريكيين للعرب والمسلمين، وافتتانهم بهم فى آن. تؤكد رواية أورن أن الأمريكيين أبعد ما يكونون عن العنصرية ومعاداة السامية وتتشارك مع كتابات زكريا ولويس فى التجاهل المتعمد لتاريخ الأمريكيين والغربيين العنصرى والإمبريالى بعامة وبجزم، بدلا من ذلك، بأن الإرث الثقافى والدينى الذى يتشارك فيه الأمريكيون مع إخوانهم اليهود فى أرض الميعاد يأسر لب الأمريكيين، وأن الولايات المتحدة ظلت دائما أمة ذات مبادئ تعمل وفق دستورها الأخلاقى (المسيحي) ويذهب إلى أن اليهود والمسيحيين الأمريكيين يمثلون قوة حضارية فى مقابل العالم العربى الذى يسوده التعصب والبربرية كواقع ثقافي. من المفارقات أن أوجه قصور الكتاب أكثر جاذبية بكثير من روايته المعتلة التى تنضح بالإسلاموفوبيا وكراهية العرب، ذلك لأن تحيز الكتاب المقيت، والذى كان موضع إطراء إعلام التيار السائد، يعكس بدقة الكيفية التى ترى بها الولايات المتحدة العالم العربى والإسلامى إذ إنها لا تنظر إليه فقط على أنه مستودع النفط الذى يغذى الصناعات الأمريكية، بل تراه أيضاً تهديدا يجب احتواؤه والتحكم فيه.

فى واقع الأمر، فقد أظهرت الأنظمة شرق الأوسطية وقطاع كبير من سكان

المنطقة الود للعولمة والنيوليبرالية، حتى أن أعدادا لا حصر لها من المثقفين اليساريين والإسلاميين، والناشطين يقولون إن المنطقة أظهرت ترحيبا مفرطا بتلك التوجهات، وأن تطبيق تلك السياسات قد نجم عنه بالفعل قدر كبير من الدمار البيئي، وندرة الطعام، وإعادة توزيع الثروة وتركيزها فى أيدى النخبة وزيادة ترسخ الطبقة السياسية ومأسستها. بيد أن بعض المسلمين والعرب ظلوا يقاومون ضغط الغرب من أجل فرض تحرير التجارة، والسياسة الخارجية النيوكلونيالية، والتدخل العسكرى المباشر، وأيضا الحكم السلطوى الذى يمارسه من تدعمهم هذه السياسات وتبقى عليهم. وفى واقع الأمر، لم يكن المسلمون أبدا «ضحايا طيبين» حيث ظلوا دائما يرفضون الاستسلام والكُمون فى وضع «المعرضين للمخاطر».

نشاهد على شاشات القنوات الفضائية الإخبارية، الفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين وهم يلوّحون بجثامين أطفالهم الذين قتلهم الأمريكيون، أو الأسلحة والذخائر الأمريكية، وعادة ما ينجزون، عن حق، وعودهم بالثأر لقتلاهم.

بيد أن إعلام التيار السائد الأمريكى لا يفهم مقاومة العرب لأعمال عنف المستوطنين والمستعمرين الصهاينة، ومقاومة المسلمين من باكستان إلى المغرب للنيوليبرالية والجرائم السياسية الأمريكية فى المنطقة، لا يفهمها سوى على أنها برهان على تخلفهم. بل إن رفضهم لأن تسحقهم قوة الولايات المتحدة أحادية القطب، أو العولمة النيوليبرالية، «تبرر» فى نظر الرأى العام الأمريكي، مزيدا من استخدام القوة سواء من خلال التدخل العسكرى المباشر، أو من خلال وكلائهم فى إسرائيل وأفغانستان وباكستان ومصر ولبنان والمغرب. لم يحدث وأن تم تجاهل القرارت الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بشأن أى بلد فى العالم، ناهيك عن التحقيقات على غرار تقرير جلادستون، لم يحدث وأن تم تجاهلها بوقاحة، وصلف كما يتم فى حالة القرارات المتعلقة بالبلاد العربية، وبخاصة فلسطين ولبنان. لم يحدث وأن استخدمت قرارات الأمم المتحدة آلية للقمع والعزل والتحكم سوى تلك التى تصدر ضد بلدان العالم العربى (كما حدث فى حالة العراق). لم يتعرض أى شعب لأعمال عنف إجرامية

من جانب الولايات المتحدة وحلفائها (بخاصة إسرائيل وتركيا) بأكثر مما تعرضت له الشعوب العربية (في فلسطين ولبنان والعراق). لذا هنا أن نذكر قول مادلين أولبرايت بأن مصالح الولايات المتحدة أكثر أهمية من موت نصف مليون طفل عراقي، وكذلك تصريح كوندليزا رايس بأن دماء مئات القتلى المدنيين أثناء عدوان إسرائيل على لبنان عام ٢٠٠٦ هي مخاض ولادة الديموقراطية والشرق الأوسط الجديد. وفي واقع الأمر، فلا يسمح للعرب أبدا أن يعتقدوا أن حياتهم واستقراراهم ومستقبلهم تعادل في قيمتها حياة واستقرار ومستقبل الإسرائيليين أو الأمريكيين أو الأوربيين. مهما كان ثقل الواقع أو التاريخ، ومهما قاوموا هندستهم اجتماعياً واقتصادياً، أو ساروا في ركاب النيوليبرالية، فإن العرب والمسلمين يدركون جيدا أنهم سيظلون أنجاسا منبوذين في أعين العالم الغربي.

obeikandl.com